نبذة مفيدة من أخلاق القرآن وآدابه

تأليف

صاحب الفضيلة الشيخ
محمد سليمان سليمان
رحمه الله تعالى

الطبعة الأولى

١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م

دار الزهراء للطباعة والنشر
١٦ ، ١٨ شارع الجامع المتفرع من شارع طيبة
تليفون ٩٠٧٩٨٢

العارف بالله تعالى

الشيخ محمد سليمان سليمان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لحـد لله حمـداً يوافى نعمه ، ويكافىء مزيده ، ونسأله أن يلهمنا الهـد
د ، وأن يوفقنا إلى الصواب والسداد .

نصلى ونسلم على سيدنا ومولانا محمد أشرف النبيين ، وإمام المرسلين
دبه ربه وزكاه ، ثم اصطـفاه واجتباه ، وأثنى عليه أجل الثناء ، فقال
لـكريم : « وإنك لعـلى خلق عظيم » .

بعـد : فإن القرآن الـكريم هو المصدر الأصيل للإيمـان القوى ، وا
، والعمل الصالح ، والحـكمة الصائبة ، والأخلاق الـكريمة ، والآدا
الرفيعة .

الأخلاق الـكريمة هى الثمرة المرجوة ، والغاية المأمولة من اليقين الصاد
الصالح ، وحسن الصلة بالله تبارك وتعالى .

خير الأخلاق وأزكاها ، وأكرمها وأنماها تلك التى أوصى بها الدين
عليها سيد المرسلين ، لأنهـا تستمد بواعثها وأهدافها من معرفة الله
فى مرضاته ، وصدق الاتجاه إليه .

وأفرده بعضهم بالتأليف والتصنيف، يحدوهم إلى ذلك الرغبة الصادقة فى خدمة الدين، ونصح الأمة، واستنهاض عزائمها لمعالى الأمور .

وهذه الرسالة التى نقدمها إليك أيها القارىء الكريم إسهام طيب فى هذا المجال، وعمل موفق فى ذلك الميدان ، عرضت لموضوع الأخلاق عرضاً لطيفاً ، وطوفت بنا فى آفاق جليلة من التربية النفسية ، والفضائل الإنسانية ، ووضعت أيدينا برفق على الداء والدواء بأسلوب رصين ، وعبارة مشرقة ، وتسلسل بديع أخاذ ، يشد القارىء، ويجذب انتباهه، ويحمله على متابعة الفكرة، بغية الوصول إلى نتيجتها ، والظفر بثمرتها .

ولا عجب فى أن يكون المطالع لهذه الرسالة حفيا بها ، مشدوداً إليها ، فقد ربتها براعة أستاذ جليل ، وعالم عظيم نبيل ، رسخ فى ميدان العلم قدمه ، واستنارت بمعرفة الله بصيرته ، وزكت بالمجاهدة فى الله نفسه ، واطمأن بذكر الله وانتذكير به قلبه ، إنه أستاذنا أبو الطيب : محمد سليمان سليمان — طيب الله ثراه ، وأكرم منزله ومثواه ، الذى عرفه ميدان الوعظ والإرشاد خطيباً ومحاضراً وكاتباً ، ومدرساً ومفتياً وواعظاً ، وموجهاً وفقيها ، ينتظر الناس على اختلاف طبقاتهم وثقافاتهم دروسه ومحاضراته ومقالاته ، لقوة روحه ، وشدة تأثيره وأخذه بمجامع القلوب .

التعريف بما وشحت به الرسالة من تحقيق وتعليق :

وها هى الرسالة بين يديك ـ أخى القارىء الكريم ـ كما كتبها صاحبها منذ نصف قرن تقريباً محققة منقحة دون أن نضيف إليها أو نحذف منها شيئاً .

وكل ما فعلناه هو أننا عمدنا لما فيها من آيات قرآنية وأحاديث نبوية ، وألفاظ غريبة بالترقيم والتخريج والإيضاح ، ليتم النفع بها ، وتكمل الفائدة منها ، راجين أن تكون بداية طيبة وفاتحة كريمة موفقة لإتحاف المؤمنين بما حرره الشيخ رحمه الله وأثابه فى التفسير والحديث والشمائل والتصوف والفتاوى والخطب والمحاضرات ، وإنه لنعم الزاد لمن يرجو لقاء ربه ، نسأل الله أن يعين على نشره والنفع به .

والله من وراء القصد بالعون والتأييد ، والتوفيق والتسديد .

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا »

د العجمى دمنهورى خليفة
مدرس الحديث الشريف
بكلية أصول الدين
بالقاهرة

مقدمة فى القرآن الكريم

القرآن : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١). « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » (٢) « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » (٣).

القرآن : آية الله الدائمة ، ومعجزة رسول الله « صلى الله عليه وسلم » الخالدة التى لا تبلى جدتها الأيام ، ولا تضعف قوتها الأعوام .

القرآن : كتاب الله الذى هزمت صولة حقه باطل المعارضين ، وتقطعت دون النيل منه ألسنة المفترين ، ولم تزعزعه عواصف الفتن وأعاصير الشدائد التى تعاقبت على الأمم الاسلامية ، بل هو كما هو منذ أنزله الله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٤)

القرآن : كتاب الوجود الذى لا تفنى فوائده ، ولا تنقضى عجائبه ، بحر خضم ، ومحيط أطم ، يغترف منه كل وارد عليه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

القرآن : هو الذى حرر العقول البشرية من أصفاد الجمود والرق ، وحفز

(١) سورة هود : الآية الأولى .
(٢) سورة فصلت : ٤١ ، ٤٢
(٣) سورة البقرة : ١ — ٤
(٤) الحجر : ٩

النفوس وساقها إلى مطالعة صحف الكائنات ، وتدبر ما فيها من الصنع البديع ، آخذا بيدها إلى مواطن التفكير ، مرشدا لها إلى مكامن العظة والعبرة ، لتتنبه من غفلتها ، وتوثق علاقتها بربها جل وعلا . « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » (١) . « إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون » (٢)

محتويات القرآن :

احتوى القرآن ما يحتاج اليه الإنسان فى معاشه ومعاده ، ولم يرض لأتباعه والمتدينين به أن يكونوا رهبانا فى الصوامع أو عبادا يفرون من الخلق إلى رءوس الجبال يعنون بأرواحهم ، ويتفرغون لعبادتهم ، ويتركون الجسم شبحا هزيلا تسطو عليه الأمراض ، وتفتك فيه الأدواء . كما لم يرض لهم أن يكونوا بهما(٣) لا تسعى إلا حيث تجد شهواتها وملء بطونها ، بل قدر حاجة الروح والبدن ، وراعى مطالب كليهما وخط لهم خطة معتدلة تلائم سنة الوجود ، وتناسب قوانين الحياة ، وسن لهم نظاما حكيمة تبلغ بالروح غايتها ، ولا تمنع البدن حاجته ، مما يمهد للنفس أن تنال حريتها الحقة من أسر الشهوات وترتقى فى معارج الكمال

(١) سورة يونس : ١٠١
(٢) سورة الجاثية : ٣ — ٦
(٣) البهم : جمع بهمة وهى أولاد الضأن والمعز والبقر .

الروحى بانتظام وسلام . « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (١) .

ما ترك القرآن سبيلا من سبل الإصلاح إلا سلكه ، ولا بابا من أبواب الفلاح مغلقاً إلا فتحه « ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٢) » .

وتشمل آياته إجمالا ما يأتى :

١ — **عقائد** : وهى مبينة فى الآيات التى عنيت بلفت العقول إلى الأدلة العقلية أو الكونية لإثبات صفات الكمال لله تعالى وكذلك إثبات اليوم الآخر وما وراءه من السمعيات ، وكله مفصل فى كتب التوحيد .

٢ — **عبادات** : وهى واردة فى الآيات التى بين فيها أحكام الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج .

٣ — أسس لتنظيم علاقة الإنسان بغيره فى مختلف الجماعات صغيرة كالأسوة أو كبيرة كالأمة والعالم ، وذلك فى الآيات التى بين فيها أحكام البيع بأنواعه والجهاد وسياسة الحروب والنكاح والطلاق والنفقات والمواريث ونحو ذلك وهو المعروف فى كتب الفقه باسم المعاملات .

٤ — قواعد للسلوك الخلقى يوكل تنفيذها لضمير الإنسان وشعوره الدينى — مراقبة الله تعالى — وهى مبينة فى الآيات التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتحث على التزام الفضائل والآداب ، وتنفر من الرذائل والموبقات ، وهذا القسم الأخير هو الذى نقصده فى هذه الرسالة ، ونعنى ببيان مهامه ، ومداره على

(١) سورة النحل : ٨٩ . (٢) سورة الروم ٣٠ .

تجنب الإضرار بالنفس أو بالغير ، بإعطاء كل ذى حق حقه ، خالقا أو مخلوقا .

وقد عنى القرآن بهذا الجزء من التشريع عناية فاقت كل النواحى التى وجه القرآن عنايته لإصلاحها ، كما يتجلى ذلك بيسير من التأمل . ومن مجامع هذه القوانين الخلقية الآيات التى وردت فى بيان صفات المؤمنين ، مثل قوله تعالى : «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقراً ومقاما ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما ، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ، والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا »(١) . «الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار (٢) ، « الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »(٣) إلى آخر ما ورد فى هذا الصدد .

أثر القرآن فى الأمة العربية خلقياً واجتماعياً :

أنزل الله تعالى هذا الكتاب الحكيم على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فما تداولته

(١) سورة الفرقان : ٦٣ — ٧٣ . (٢) سورة آل عمران : ١٧ .
(٣) سورة آل عمران : ١٣٤ .

ألسنة العرب الذين أنزل عليهم ، ولا امتلأت به أسماعهم حتى انعكس من مرآته الصافية شعاع قوى من نور الهداية الإلهية سطع على طبائعهم الجافة وقرائحهم الخامدة وقلوبهم المظلمة فنفى خبثها وصفى جوهرها من رجس الوثنية ، وبعد بها عن عادات الوحشية ، وطبعها بطابع الرحمة ، فأصبحوا بفضل هدايته وإشراقه إخوانا على سرر المحبة فى الله متقابلين « أشداء على الكفار رحماء بينهم » قد ذهبت من بينهم الأحقاد والضغائن ، وتلاشت العصبية الحمقاء ، وحل محلها التعصب لمكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، ومحاسن الأمور ، وصاروا أولى قوة فى دين وحزم فى لين ، وإيمان فى يقين ، وحرص فى علم ، وتجمل فى فاقة ، وصبر فى شدة وطلب فى حلال ، ونشاط فى هدى ، وتحرج عن طمع .

أذكى القرآن فى نفوسهم نار الشوق إلى عظائم الأمور ، وجلائل الأعمال ، فبعد أن كانوا أمة خاملة ، لا يسمع لها صوت ، ولا ينشر لها ذكر ؛ نضوا(١) عن أجسادهم ثوب الإهمال والتقاعد ؛ وخرجوا من خمولهم وانزوائهم فى أنحاء شبه الجزيرة العربية إلى عالم الوجود الخارجى ؛ وكونوا كتلة واحدة مستجمعة كل ماتحتاج إليه الأمم الناهضة من خلال وسجايا ، وكان لهم من أخلاقهم القويمة ونفوسهم المهذبة قوة لا تعادلها قوة الحديد والنار ، وما منعهم قيامهم بحقوق الألوهية أن يعنوا بالأعمال الدنيوية ، وما قعد بهم ذلك أن يبزوا(٢) أمم عصرهم فى التقدم ويدوخوهم فى سوح(٣) القتال ، ويؤسسوا لهم دولة كانت من أقوى الدول وأعتاها ، بل كان اتصالهم بالدين وتشبع نفوسهم بمبادئه الحقة أكبر قوة

(١) نفوا : خلعوا .
(٢) بزه : تفوق عليه .
(٣) سوح بضم السين ورد روح جمع ساحة وهى ميادين القتال .

اعتمدوا عليها فى جهادهم ، وكتب التاريخ أقوى حجة على ذلك وأعظم برهان . ومن كلام الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه فى خطبة يمتدح بها الشريعة الغراء .

اعتبروا بحال ولد إسماعيل وإسحاق وبنى إسرائيل عليهم السلام . فما أشد اعتدال الأحوال وأقرب اشتباه الأمثال ، تأملوا أمرهم فى حال تشتتهم وتفرقهم ، ليالى كانت الأكاسرة والقياصرة أربابا لهم يحتازونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا إلى منابت الشيح ومهافى الريح ونكد المعاش فتركوهم عالة مساكين ، أهل دبر ووبر ، أذل الأمم دارا وأجدبهم قرارا لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها ، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها فالأحوال مضطربة والأيدى مختلفة ، والكثرة متفرقة ، فى بلاء أزل(١) وأطباق جهل من بنات موءودة ، وأصنام معبودة ، وأرحام مقطوعة ، وغارات مشنونة ، فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم ، حين بعث إليهم رسولا ، فعقد بملته طاعتهم ، وجمع على مودته ألفتهم ، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها ، وأسالت لهم جداول نعيمها والتفت الملة بهم فى عوائد بركتها ، فأصبحوا فى نعمتها غرقين ، وخضرة عيشها فكهين وراضين ، قد تربعت الأمور بهم فى ظل سلطان قاهر ، وآوتهم الحال إلى كنف عز غالب وتعطفت الأمور عليهم فى ذرى ملك ثابت ، فهم حكام العالمين ، وملوك فى أطراف الأرضين ، يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم ، ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم ، لا تغمزلهم قناة ولا تقرع لهم صفاة .

هذا . ولو أنا استكشفنا سر هذه العظمة الخالدة واستطلعنا منشأ هذا الانتصار

(١) الأزل : الضيق والشدة .

الباهر والانتشار العظيم الذى شمل جزءاً كبيراً من سطح المعمورة فى ظرف من الزمان وجيز ، لما وجدنا إلا دعوة ملائمة للفطرة متمشية مع تنوع النفوس واختلاف الاستعدادات ، وتعليمات مسددة تحسست موطن الداء فأصابته ، ووصفت له أنجع الدواء ، وشرعت للقوى والضعيف فكل يأخذ ما يلائم طبعه ، ويتفق وميول نفسه .

لم يدع القرآن إلى مكارم الأخلاق دعوة فلسفية نظرية ، بل دعا إليها دعوة عملية قوامها العمل المتكرر الذى هو العنصر الوحيد فى ترسخ الفضائل وثبوتها ، وأحاط وصاياه الأدبية بما يحمل النفوس المتكاسلة المتوانية على النهوض إلى الخير ، وتدفع بمن تغلبت عليه نزعة الشر واستأسرته الشهوات إلى ما فيه صلاحه ولو مرغما فى بادىء أمره وذلك بما تبع به الأوامر والنواهى من الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، الذى يحرك فى النفوس غريزتى الخوف والأمل ، ويهيب بها إلى الامتثال فتنقاد مخافة المقت والإذلال ، أو رغبة فى حسن المآل .

تلك حال أمة الاسلام ، وذلك مبلغ مجدها وعظمتها أيام كان القرآن الكريم ، والشريعة المطهرة ، إماما لأبنائها ، وموئلا لأفرادها ، يلجأون إليه فى كل أمر ، ويفزعون لحكمه إذا استحر الخلاف بينهم ، أو اشتبهت الطريق عليهم ، ولكن خلف من بعدهم خلف بدد وتراث آبائهم وأضاعوا مجد أسلافهم ، بانحرافهم عن جادة الصواب ، ونبذهم تعليمات دينهم ، وإهمالهم بث روحه فى نفوس أبنائهم ، فتقسمتهم الأهواء ، ولعبت بهم الأغراض والمطامع ، فكانوا نهبة الأمم وأكلتها السائغة ، لا يقوون على إتمام أمر ، ولا ينجحون فى تحقيق مسعى ، لا تخرج الأمة منهم من يد دولة إلا لتنتقل إلى يد أخرى ، غرباء فى ديارهم أسراء فى

بلادهم ، تنتهك حرماتهم ، وتنصر أبناؤهم(١) ، ولا يجدون من يمد إليهم يد المعونة والمساعدة من إخوانهم فى الدين وأخدانهم(٢) فى العقيدة ، نسوا الله فنسيهم وأهملوا أوامره فأهملهم ، وتغافلوا عن قول الله تعالى « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »(٣) .

طالما امتلأت أسماعنا بالمطالبة بالاستقلال ، وكثيرا ما روعتنا أصوات المناداة بحياة مصر والمصريين ، ولكن الأمر على حد المثل السائر (تسمع جعجعة ولا ترى طحنا) نسمع أمثال هذه المظاهر ثم نلتفت فلا نجد الكافة إلا أحد شخصين ، شخص فتن بزخارف الدنيا ، ووجد فى يده فضلة من المال ، فهو يبعثرها ذات اليمين وذات الشمال كالطفل يلهو ويلعب لا يدرى ما يفعل به ، ولا يهمه من أمره إلا ملأ بطنه ، وأشبع شهوته ، لا يبالى سقطت مروءته أم انحطت مرتبته ، وآخر تعس قد ولت عنه الدنيا وأدبرت ونضب من يده معين المال ، وفتك به الفجور ، وأذوته الملاذ(٤) فهو شبح هزيل ، أو طريح عليل ، يائس من الحياة ، يرقب الموت فى كل آن ، ويطلبه فى كل مكان ، فقل لى بربك هل ينتظر من مثل هذين خير أو صلاح ؟ وهل تتقدم أمة سوادها الأعظم وأكثريتها الساحقة من هذين النوعين ؟ ؟ اللهم رحمة بنا وعطفا ، فقد تقطعت بنا الأسباب وسدت فى وجوه المصلحين سبل الإصلاح ، نسألك التوفيق إلى الخير ، فأنت الهادى

---

(١) يشير إلى عهد نشاط المبشرين فى ظل الاستعمار وكنفه .
(٢) الأخدان جمع خدن وهو الصاحب . (٣) سورة القتال : ٧
(٤) أضعفته .

وبك المستعان .(١)

الخلق والأدب

الخلق واحد الأخلاق والأدب واحد الآداب . وقبل أن نبين كليهما نقدم بكلمة تمهيدية نستوضح بها ما يذكر في معناها فنقول :

يجتاز العمل الإنساني الاختياري قبل بروزه إلى حيز الوجود الخارجي أربعة أدوار يحس بها كل امرئ من نفسه بأدنى تأمل . وهي دور الميل ، ودور الرغبة، ودور الترجيح ، ودور العزم والتصميم : أي الإرادة ، ثم بعد ذلك يبرز إلى الخارج .

ففي الأول تتجه النفس إلى الشيء الذي تصورت أنها في حاجة إليه أيا كان الباعث ، وذلك دور الميل ، ثم بعد الإحساس بذلك إما أن يكون مع هذا الميل ميول أخرى تتدافع معه في التنفيذ أولا ، فإن لم يكن معه ميل آخر يعارضه

(١) كتب الشيخ رحمه الله هذا الكلام منذ خمس وأربعين سنة أي في أواخر العشرينات حين كان المستعمرون يبسطون نفوذهم على كافة أرجاء العالم الاسلامي والعربي وحين كان معظم الحكام يسيرون في فلكهم ، والمخلصون منهم كانوا عاجزين ، يحال بينهم وبين مطالب الأمة وكانت الأسر المالكة تحكم بالبطش والخديعة وتمالئ المستعمرين الدخلاء ، وكانت الشعوب تعاني من البطش والقهر والخديعة من الحكومات المتعاقبة ما ملأ القلوب بالأسى والنفوس باليأس وعن هذا يعبر الشاعر محمود محمد بكر هلال في قصيدة له :

واحسرتا للشرق أصبح نهبة — في قبضة الغرب الأثيم الجاني
هذا لأمريكا وتلك لتركيا — والإنجليز بمصر والسودان
ولهم ببغداد مصالح جمة — ولهم حقول الزيت في إيران

والحمد لله فقد تغير الحال ، وأصبح أمر البلاد في أيدي بنيها ، والله المسؤول أن يحقق الآمال ويصلح الأحوال باطراح الأهواء والعودة إلى الكبير المتعال :

أو كان ولكنه كان قويا تغلب على غيره انتقل العمل إلى دور الرغبة ، وهي « الميل المتغلب » ، وهذه هي الخطوة الثانية في سبيل العمل ، ثم ينتقل الحال بعد ذلك إلى دور التفكير في هذه الرغبة من حيث صلاحيتها للبروز أولا ، ومن جهة إمكانها أو استحالتها وما إلى ذلك ، وهذا دور الترجيح والنظر ، وصاحب الرأي فيه العقل ، ينظر في الأمر بحسب تجاربه السابقة أو بتقدير الظروف الحالية ، وفي هذه الخطوة إما أن تنتقل الرغبة إلى دور العزم إن لم يكن ثمت ما يمنع بروزها ، وإما أن ترد من حيث أتت ، فإن رجح بروز العمل وتقررت صلاحيته تسلمته الإرادة وقامت بإبرازه إلى الخارج عن طريق الجوارح .

هكذا الشأن في كل عمل من أعمال الإنسان الإرادية متى كان في مبدئه ولم تعتده النفس ، أما إذا تكرر بروزه كثيرا من الشخص اكتسب قوة كبيرة تسهل مروره بسرعة في هذه الأدوار الأربعة ، وتمكنه من التغلب على غيره من الميول المتدافعة معه كلما جدت الظروف الداعية إليه لأنه في هذه الحالة يصير عادة نفسية . وعلى ضوء هذا البيان يتضح ما يأتي :

فالخلق : معناه في اللغة الطبع والسجية . وعرفه الأخلاقيون بعدة تعاريف كلها متقاربة في المعنى ، متحدة في الغاية كما ستتبين ذلك . فبعضهم عرفه بأنه « عادة الإرادة » أي أن الإرادة الإنسانية إذا تكرر منها العزم على شيء بخصوصه كلما جدت الظروف الداعية إليه بلا تخلف كالعزم على الإعطاء والبذل للمحتاجين ، سميت تلك العادة ، خلق الكرم ، وبعضهم عرفه بأنه « تغلب ميل من الميول باستمرار » ومثاله ظاهر بما ذكرنا في سابقه ، ولا فرق بين هذا وسابقه

إلا أن الأول اعتبر دور العزم والثانى اعتبر دور الرغبة ، وعرفه ابن مسكويه «بأنه حال للنفس داعية لها إلى أفكارها من غير فكر ولا روية » وعرفه الغزالى بأنه « هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية » .

والناظر فى هذه التعاريف يرى أنها متفقة على أن الخلق معنى نفسى لا مظهر خارجى . وكما عرفوا الخلق بما ذكر وأرجعوه إلى معنى نفسى أسموا الأثر المنبعث عنه الذى هو المظهر الخارجى « سلوكا أو معاملة » وجعلوه دليلا على الخلق وأمارة فقط ، تسوغ الحكم بوجود منشئه إن صدر باستمرار وفى الظروف المتشابهة ، أما إن كان نادرا كمرة أو مرتين ، فلا يكون كافيا فى صحة الحكم . ثم إن الاثر الناشىء عن الخلق إن كان جميلا محمودا سمى مصدره خلقا حسنا أو فضيلة ، وإن كان قبيحا مذموما سمى مصدره خلقا سيئاً أو رذيلة .

وأما الأدب : فقد قال فى المصباح « أدبه أدبا » من باب ضرب علمته رياضة النفس ومحاسن الأخلاق ، قال أبو زيد الأنصارى : الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الانسان فى فضيلة من الفضائل . وقال الأزهرى نحوه ، فالأدب اسم لذلك ، وجمعه آداب مثل سبب وأسباب ، هذا نص المصباح . والمفهوم من إطلاقات الفقهاء والمحدثين واستعمالاتهم أنهم يطلقون الأدب على ما طلبه الشرع طلبا غير جازم ، أعم من أن يكون من أعمال الجوارح ، كلين الجانب وبسط الوجه والإحسان إلى الجار ونحو ذلك ، ومن ذلك قولهم آداب الصلاة ، آداب المعاشرة ، آداب الزيارة ، وما إلى ذلك . وجلى أن الاطلاق اللغوى أشمل من ذلك ، لأنه يعم ما كان واجبا فعلا أو تركا بحب المقياس الأصولى ، وما كان

مندوبا وهو المتفق مع قول النبى صلى الله عليه وسلم « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » (١) . إذ ما كان تأديبه إلا بالقرآن وفيه الواجب والمندوب ومع قوله صلى الله عليه وسلم أيضا « الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » (٢) وليس تأديب الأولاد قاصرا على تعويد المندوب بل الواجبات أوكد منه طلبا .

واذا قارنا بين معنى **الأدب** لغة وبين ما يسميه الأخلاقيون بالسلوك ، وجدناهما متفقين ، ومن ثم يكون الخلق هو الملكة والحال النفسية التى تكتسب بالتعود وتبعث على العمل بسهولة ، ويكون **الأدب** أو السلوك هو الأثر الناشىء عن الخلق من الأعمال الحسنة أو القبيحة .

وإرشادات القرآن الخلقية كلها دائرة بين هذين الأمرين ، إذ تارة يتناول أعمالا هى آثار لملكات نفسية ، وذلك كالأمر بغض البصر عن الأجنبيات ، وكالترغيب فى كظم الغيظ والعفو عن المسىء من الناس ، فإن الأولى من آثار العفة ، والآخرين من آثار الحلم ، وتارة يتناول الملكات نفسها ، وذلك كالأمر بالصبر والصدق والعدل والإحسان . وإذا كانت الملكات كما أسلفنا غاية ونتيجة مترتبة على مباشرة الأعمال التى من شأنها إيجادها مباشرة متكررة كان لا معنى للتكليف بالملكات إلا طلب التعود على تلك الأعمال ، وإلزام النفس بها ، ومجاهدة الدواعى النفسية التى تبعده عنها . هذا وننتقل بعد ذلك إلى ذكر خلاف الفلاسفة والعلماء فى :

---

(١) حديث مشهور على الألسنة — وقد صححه الحافظ ابن ناصر — وهناك اتفاق بين المحدثين على صحة معناه .

(٢) رواه ابن ماجه .

طبيعة النفس الانسانية

من حيث الخير والشر

— فذهب قوم إلى أن الاصل فى فطرة الإنسان الخير ، والنفس فى نظرهم وعاء للكمال بجبلتها ، وإنما يطرأ عليها الشر بتأثير البيئات الشريرة التى تحل فيها ، فتركها مع وسائل الشر هو الذى يفسدها ويذهب بها إلى النقيصة . ونسب هذا الرأى إلى سقراط والرواقيين .

ـ وذهب آخرون إلى أن الأصل فى الفطرة الشر ، والناس فى نظرهم أشرار بالطبع وإنما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم ، إلا أن فيهم من هو فى غاية الشر فلا يصلحه التأديب ، وفيهم من ليس كذلك فيمكن أن ينتقل من الشر إلى الخير بالتأديب من الصبا ، ثم بمجالسة الأخيار وأهل الفضل . ذكره ابن مسكويه وممن دان بهذا المذهب المتنبى والمعرى . ولذلك يقول المتنبى :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

ـ وذهب جالينوس إلى أن من الناس من هو خيِّر بالطبع ، وهم كثيرون وليس ينتقل هؤلاء إلى الشر ، ومنهم من هو شرير بالطبع ، وهم كثيرون وليس ينتقل هؤلاء إلى الخير ، ومنهم من خلقه وسط بين هذين ، وهؤلاء قد ينتقلون بمصاحبة الاخيار ومواعظهم إلى الخير ، وقد ينتقلون بمقاربة أهل الشر وإغوائهم إلى الشر ، قرر ذلك سيرا مع المشاهد لمن راقب حال الناس .

ـ وفريق رابع : قالوا بأن من كان له خلق طبيعى لم ينتقل عنه ، ولا يفيد

فيه الإصلاح والتهذيب ، وقاسوا على الأوصاف الظاهرية القائمة بالأجسام من السواد والبياض والطول والقصر ونحو ذلك على الأوصاف القائمة بالنفوس من محبة المال والجاه وما تدعو إليه المحبة من الشره والحقد والحسد وأمثال ذلك ، فكما أن الأولى لا يمكن تغييرها فكذلك الثانية . وفى هذا الرأى يقول ابن مسكويه بشأنه إنه ظاهر الشناعة جدا لأنه يؤدى إلى إبطال قوة التمييز والعقل وإلى رفض السياسات كلها وترك الناس هملا مهملين ، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم .

وهذه الأقوال الأربعة تتفق فى القول بأن شيئاً من الأخلاق بخصوصه يكون فطرياً فى النفس طبيعيا فى الإنسان ، ويقابلها فى هذا رأيان آخران .

* رأى منسوب « لكانت » الفليسوف الألمانى يقول فيه : إن فطرة الطفل إلى زمن محدود من عمره لا تنسب لخير ولا شر ، ولا تمت إليهما بصلة ما .

* والرأى الآخر ، وهو الذى اعتمده ابن مسكويه وغيره ، يقول : بأنه ليس شىء من الأخلاق بخصوصه طبيعيا فى الإنسان ، بل يولد الطفل وفى فطرته الاستعداد للخير وللشر والقبول لكليهما « بدءا وانتقالا » ينمو فيه خلق الفضيلة باتباع وسائله من التربية والتهذيب ومصاحبة الأخيار واستعمال الروية والفكر ، وخلق النقيصة باتباع سبله من مصاحبة الأشرار وإهمال التربية والتهذيب والانقياد لنزوات الشهوة والغضب . غاية الأمر أن تكوُّن الخلق الطيب قد يكون سريعاً أو بطيئاً لسبق وراثة أو تخلفها . وكذلك الانتقال عن الخلق القبيح لكثرة مران تأصل بسببه فى النفس أو عدم ذلك ، وليس من طاب أصله ونظف عنصره كمن

خبث طبيته وتلوث منشأه . ولا من مرنت نفسه على الإجرام كمن كان فى أول العهد به أوقريبا من البداية .

وهذا القول فى نظرى أمس الأقوال بالشريعة المطهرة العادلة ، وأوفق بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من التربية والتهذيب والتبشير والتخويف لجميع الناس بلا استثناء لفرد ، ولاتخصيص لأحد دون أحد .

ومما استدل به الأستاذ الغمراوى فى كتابه الغرائز إثباتا لهذا الرأى قول الله تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » (١) وكتب عليها العلامة أبو السعود أى أفهمها إياها وعرفها حالها من الحسن والقبيح وما يؤدى إليه كل منها ، ومكنها من اختيار أيهما شاءت ، ا هـ والذى أفهمه فى كلام المفسر أنه ليس تفسيرا لغويا ، وإنما هو تفسير شرعى ، لأن الإلهام لغة نوع من حديث النفس الذى لم يسبق بتفكير واستدلال ، قال فى المختار : والإلهام الإلقاء فى الروع ، ولعل ذلك أتى من ناحية أنه لامعنى لإلهام النفس الفجور والتقوى فى أول عهدها بالحياة كما يفيده التعقيب بالفاء إلا خلقها مستعدة لذلك وإلا فهى فى هذا العهد ساذجة لاتعقل شيئاً كما هو المشاهد .

وبالجملة فالذى ينتهى إليه الرأى فى هذا الموضوع : هو أن الله تعالى خلق فى الإنسان استعداداً للخير وللشر ، وأودع فى فطرته بذورا من كل منهاتظهرها وتنميها العوامل التى يتعرض لها الشخص فى أدوار حياته ، ومنحه عقلا يفرق به بين الضار والنافع والجميل والقبيح ، ونصب له من الأدلة ما يكفى للأخذ بيده إلى

(١) سورة الشمس : ٧ !

السعادة فإن تهيأت له بيئة صالحة وعوامل طيبة ، واستعمل عقله الممنوح له ، وانتفع بما أقام الله له من أسباب لهدايته ورشده ، نمت فيه الفضائل وأنتجت نتاجا حسنا ، وإن كان الأمر بضد ذلك ارتكس فى حمأة الرذائل وصار شرا على نفسه وعلى المجتمع الذى هو فيه وساءت عاقبته فى الدنيا والآخرة ، والله أعلم . فالعاقل السعيد من وقف من نفسه موقفا حازما وجعلها بمكارم الأخلاق ، وأنقذها من هلكتها ، وأخذ بيدها إلى حيث هناؤها وراحتها ، وليكن ذلك بحسب ما نذكره فى :

« قانون التربية الخلقية »

« أو بيان الطريق العلمى لاكتساب مكارم الأخلاق »

قاس ابن مسكويه وغيره ممن كتب فى هذا الموضوع وظيفة المربى الأخلاقى على وظيفة الطبيب الجسمى ، ولذلك قسم ابن مسكويه طب النفوس إلى قسمين ، فقال : « لما كان طب الأبدان ينقسم بانقسمة الأولى إلى قسمين . أحدهما حفظ صحتها إذا كانت حاضرة ، والآخر ردها إليها إذا كانت غائبة ، وجب أن تقسم طب النفوس هذه القسمة بعينها فنردها إذا كانت غائبة ونتقدم فى حفظ صحتها إذا كانت حاضرة ، ثم وجه الكلام فى كل قسم إلى فريق على حدة .

ويتلخص الكلام على علاج النفوس المريضة فى ثلاث نقط رئيسية نبدأ بها قبل الكلام على القسم الآخر .

وهى بيان الطريق إلى تعرف أمراض النفوس ، ثم كيفية علاجها وتطهير النفس منها ، ثم إيضاح ما يتبع لتربية أخلاق جديدة صالحة .

ونبدأ منها أولا بالكلام على :

«ما به تعرف أمراض النفوس»

ليس كل شخص يستطيع بنفسه الاهتداء إلى عيوبه الأخلاقية لما جبل عليه الإنسان من الولوع بحب ذاته . وعين المحبة كما يقال عمياء ، فلا يكاد يفقه لها عيبا ولا يعرف منها نقصا . ولذلك ذكر الأخلاقيون عدة طرق تسهل على الشخص مقصده وتنيله غرضه . منها أن يختار صديقا كاملا فاضلا يثق به ويتفق معه على أن يصدقه النصح عن عيوبه التى يراها فيه ، ويأخذ عليه بذلك عهدا ، ويفهمه أنه لا يعتقد صدقه فى مودته إلا إذا قام له بهذا الأمر حق القيام ، فإذا ما أخبره ببعض ما يراه فيه فليظهر السرور والانشراح وليشكره على ذلك ، ثم يسعى فى معالجة ذلك العيب بما يزيل أثره ليكون ذلك داعيا للناصح إلى معاودة نصحه ، وليلاحظ أنه كلما كان الصديق أوسع نظرا ، وأكمل نفسا ، وأدق ميزانا للأمور ، كان أجدى عليه من غيره وأقرب إلى الإصابة والتفطن لعيوبه ، وكما يتخير الانسان لتشخيص مرضه البدنى أحذق الأطباء فأولى به أن يبحث عن أخلص الأصدقاء وأقربهم توصيلا للغاية المنشودة فى مرض نفسه التى هى أغلى وأنفس ، هكذا كان ديدن السلف الصالح رضى الله عنهم ، كان عمر رضى الله عنه على علو نفسه ، واتصافه بفاضل الأخلاق يتعرف أحوال نفسه من أصدقائه الذين لا يخشون فى مقال الحق لومة لائم ، فقد ورد أنه كان يسأل حذيفة رضى الله عنه ويقول له أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنافقين ، فهل ترى على شيئا من آثار النفاق ، وكان يقول « رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى » .

ومنها : أنه ينظر لما يقوله أعداؤه فيه ، فهم أعلم الناس بعيوبه وأشدهم

تطلعا إليها وتفتيشا عليها ، لا يحتشمون فى إظهارها ، بل قد يتجاوزون ذلك ويزيدون على ما يعرفونه تخرصا وكذبا ، والاستفادة من هؤلاء أكثر من الأصدقاء ، لأن الصديق قد يحتشم ، وقد يتملق ويداهن .

عدای لهم فضل علی ومنة ... فلا أبعد الرحمن عنی الأعادیا
هم عرّفونی زلتی فاجتنبتها ... وهم نافسونی فارتقیت المعالیا

— ومنها : أن يتفقد أحوال الناس وأعمالهم ويتخذها مرآة له يرى فيها صفات نفسه ، فما كرهه من أحوالهم ورآه عيبا فليعرض نفسه عليه وينظر هل هو برىء منه أو واقع فيه . فإن ظهر له شىء منه جد فى الابتعاد عنه . قيل لعيسى عليه السلام : من أدبك ؟ قال : ما أدبنى أحد ، رأيت جهل الجاهل شينا فاجتنبته .

— ومنها : النظر فى كتب الأخلاق التى عنيت ببيان الحسن والقبيح منها ثم عرض نفسه على ما ورد فيها كما فى سابقه .

فاذا ما عرف عيبه وتبين مرض نفسه فلينهض لعلاجه والتخلص منه على النحو الآتى الذى نذكره فى :

« علاج الخلق »

وليس غرضنا الآن إيراد العلاج لكل رذيلة على حدة ، بل المقصود ذكر أمر عام يكون بمثابة الأساس فى علاج جميعها .

وقد ذكر الأخلاقيون أن ملاك الأمر فى ذلك هو سلوك طريق المضادة لكل ما خرجت فيه النفس عن قانون الأخلاق الفاضلة ، ومن كلام أرسطو « إذا تعدى خلق امرىء حده فليقومه بالميل إلى ضده » فمثلا من أحس من نفسه بتغلب

خلق البخل عليه عالجه بتكلف أعمال الكرم حتى يصير الكرم طبعا له وعادة لاتتخلف عند وجود دواعيها ، وكذلك خلق الكبر يعالج بتكلف أعمال المتواضعين ، وخلق الجبن يعالج بالتعرض للمخاوف وهكذا ، ولا بأس أن يكون أميل إلى الإفراط نوعا فى بادىء أمره ، حتى إذا ماوثق من نفسه وتأكد الصحة رجع للحد الوسط .

وقد حكى الغزالى رحمه الله أن بعض الأخيار رأى من نفسه شدة الغضب وأراد أن يعودها الحلم فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر ويكظم تهيجها حتى صار الحلم له عادة ، وصار يضرب به المثل . وقد يستهجن بعض الناس مثل هذا العمل ويراه خروجا على المألوف وغلوا وإسرافا ، ولكن إنما يعرف الفضل من الناس ذووه ، ومانشأ ذلك إلا من الجهل بقيمة الفضيلة ، وعدم الإحساس بما تحس به النفوس الكريمة من ثقل الرذيلة وبشاعة منظرها ومرارة مذاقها .

وقد أسلفنا عند الكلام على الخلق أنه عادة الإرادة ، حسنا كان أو سيئا ، وإذ كان كذلك فليتبع فى تغييره مايتبع فى تغيير أى عادة ضارة ، وكذلك يتبع فى تكوينه مايتبع فى تربية العادة . وخلاصة مايطلب فى تغيير العادة بعد إشعار النفس ببشاعة الرذيلة وتبصيرها بما تخلفه وتستتبعه من أضرار فردية أو اجتماعية دينية أو دنيوية مايأتى : —

(١) أن يستصحب عزما قويا وتصميما نفسيا لاشية فيه لشىء من التردد ، ويحف ذلك العزم بما يقويه فإن رأى التورط بإعلان ذلك العزم يقوى نفسه

خشية المعرة أعلنه . وكذلك يغشى الأماكن التى يرى فى غشيانها إبعادا له عن موطن الرذيلة ، ومعينا على تناسيها كأن يبتعد عمن يحسنها فى نظره من إخوان الشر ، ويصطحب بمن يقرب الفضيلة إلى نفسه ، ومثل ذلك البعد عن كل مامن شأنه إثارة الشوق إليها ، كسماع الأغانى المبتذلة ومطالعة الأخبار المهيجة للشهوة لمن يريد أن يقمع شهوته ويسد على نفسه باب التبذل والاستهتار وما إلى ذلك . — وخير له أن يعزم على الترك دفعة واحدة إن آنس من نفسه القوة عليه ، وإلا بأن خاف تطرق الضعف إلى عزيمته . فأولى أن يضع لنفسه خطوات ينتقل فيها لأن عزمه على الترك الكلى أولا ، ثم رجوعه للتدرج ثانياً يضر إرادته ويهن من قوتها .

(٢) أن يتحين أول فرصة وأقربها لتنفيذ ما عزم عليه وإخراجه إلى حيز الوجود لأن ترك العزيمة بدون تنفيذ يكون سببا فى تبخرها وتلاشيها ، فإذا اعتادت ذلك لايمكن أن تنهض بعد ذلك إلى الإقدام على عمل وتقويمه .

(٣) أن يتابع التنفيذ ويواليه بما يحفظ قوة المقاومة ويكسر النفس على ماتكره ، فلا تجنح إلى الهوى القديم ، وذلك بأن يقوم فى كل مناسبة بعمل يؤيد ما اعتزمه وانتواه ، ولو لم يكن من جنس ما شرع فيه . ولكنه فى الجملة مخالفة لهوى النفس ورغبتها ، كأن تطالبه نفسه مثلا بلذة مباحة يرى أن لاضرورة إليها فيخالفها ويحرمها من نوالها وهذا يكون كمناوشة للنفس حتى تتفرق قوة المقاومة ولا تتجه كلها لما يراد تغييره .

(٤) أن يؤيد هذا بعدم السماح بمخالفة العادة الجديدة التى يحاول تكوينها

قبل أن ترسخ تماما وتتأصل ، وأن لا يتهاون فى الرجوع إلى العادة القديمة مهما كان التهاون يسيرا أو تافها لأن أقل تهاون أو تفريط يتلف من القوة النفسية التى اكتسبها الشىء الكثير جدا . وقد مثل بعض علماء النفس المتساهل من حيث مدى تضرره بتساهله « بمن يطوى خيطا على بكرة إذا سقطت البكرة بعد طى أكثر الخيط مرة واحدة » فإنه ينحل منه ما يحتاج لإعادة طيه إلى عشرات اللفات ، تكلفه إعادتها أضعاف أضعاف ما كان يبذل من حرص للاحتفاظ بالبكرة فى يده .

تلك أدوار التغيير وخطواته ، ولنشفعها بمثال تطبيقى زيادة فى الإيضاح وليكن ذلك المثل رجلا مدخنا اعتزم ترك هذه العادة القبيحة ، فيبدأ أولا بالعزم على الترك دفعة واحدة كما ذكرنا أو تدرجيا بأن يجعل لنفسه قدرا مخصوصا من كمية ما يدخنه بنفسه كل يوم أو كل أسبوع مثلا ، ثم يعلن عزمه بين أصدقائه ومعارفه ليستحى من المعاودة والرجوع ثم يسارع إلى التنفيذ ، وقد يجد لذلك فى مبدئه ألما كبيرا ، ولكنه لا يلبث أن يزول كما جرب ، ثم يقوى عزمه ببعض المخالفات الطفيفة فى أشياء غيره من ملاذ النفس المباحة فى الفترات التى بين مرات التدخين المعتادة كأن يخالفها فى طلب نوع مخصوص من الطعام أو الشراب أو الفاكهة وأمثال ذلك ، يفعل ذلك لحفظ قوته وشحذ همته على المضاء فيما عزم عليه ، ثم ليحذر من الاستثناء أو المغالطة ، وذلك مما يحصل كثيرا ويكون سبب الفشل ، وكثيرا ما يدفع إلى ذلك الخجل من أن يرد يد واهب لسيجارة مثلا ، أو يرى أنه ليس من الذوق ولا المدنية أن يتظاهر بأنه يحاول ترك التدخين ، ومثل هذه الفتاوى المزيفة والحجج الواهية كثير معروف ، ويكون عادة مقرونا بكلمة

« معلهش ، وإيه يعنى سيجارة » وأمثال ذلك مما هو معروف مشهور .

وهنا أمر ينبغى التنبه له تيسيراً للمهمة على المغير ، وهو عدم إطالة التفكير فيما يريد التخلص منه ، واستصعاب البرء منه لأن ذلك قد يؤدى إلى انكماش النفس وإحساسها بضعفها ونقصها ، وفى ذلك ما فيه من الأضرار .

كيف يربى الخلق

الخلق كما بينا « عادة » فطريق تكوينها هو طريق تكونه ، وقد ذكروا أن كل عمل يصير عادة بشيئين : الأول ميل النفس إليه ، الثانى إجابة هذا الميل بإصدار العمل مع تكرار ذلك كله تكراراً كافياً . أما تكرار العمل الخارجى وحده أعنى مجرد تحرك الأعضاء بالعمل فلا يفيد فى تكوين العادة ، كالمريض يتجرع الدواء المر مرارا ، وهو مع ذلك لا يصير عادة له فى يوم ما ، ذلك لأن رغبته ليست فيه وإنما هى فى الشفاء المنتظر ، وكذلك مجرد الميل النفسى بدون عمل ، إذ هو أمنية لا كفاء فيها ولا غناء ، والأمانى كما يقال « حلم اليقظان » .

ومن ذلك يتبين أنه لابد فى تكوين الخلق من شيئين : إشعار النفس بعظم الحاجة إليه ، لتميل إلى تحصيله ميلا جدياً ، ثم التلبس بفعله مرة بعد مرة إلى أن يثبت ويرسخ مع تحمل ما يلقاه من العناء والمشقة زمن التمرين ، وليعتبر نفسه مريضا يصبر على مرارة الدواء وغضاضته لما يرجوه من حلاوة الشفاء ، فقد يكون تذكر لذة الشفاء المنتظرة منسيا الشخص مرارة الدواء الحاضرة ، وليأخذ نفسه باللطف والخداع فإنها سريعة الانخداع ، ويستمر على ذلك حتى يتملك الخلق النفس وتصدر عنها آثاره بلا تكلف ولا عناء ، ومن الأمور التى تعين على إتمام الغرض وتحقيق الغاية ما يأتى :

أولا : صحبة الأخيار : وذلك لأنها تدفع الإنسان إلى الخير والكمال ، وتحبب الفضيلة إلى نفسه ، بسبب ما غرس فيها من الاندفاع إلى التقليد والمحاكاة ، والمتأمل يرى أن حالة الخير النفسية ومسلكه الطيب دعاية إلى الخير صامتة ، يقوم فيها لسان الحال بأبلغ مما يدعو إليه المقال ، وأكبر دليل على قوة تأثيرها ما نراه من الأشخاص الذين يعيشون فى أوساط طيبة ويحيون فى أجواء ملآى بالفضيلة . فمعاشرة الشجعان تلقى الشجاعة فى نفوس الجبناء ، ومصاحبة المجدين تحبب النشاط والهمة إلى المتكاسل المتوانى وهكذا ، وإذا كانت المجاورة تؤثر على الجماد ، فأولى أن يتأثر بها الإنسان الذى خلق من لحم ودم ، وأنت ترى الماء البارد اللطيف المنعش يجاور النار فينقلب محرقاً مثلها ، ويجاور الثلج فيهجر سيولته وينقلب ثلجاً مثله ؛ ولذلك يقول بعض الحكماء « نبئنى عمن تصاحب أنبئك من أنت » وقال الغزالى « إن جنتك ونارك أثران من أثر من تعاشرهم » ومن كلام عمر رضى الله عنه « عليك بإخوان الصدق تعش فى أكنافهم » ويكفينا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » (١) .

هذا ، ومن يراجع التاريخ يجد أن انتشار الإسلام فى الصدر الأول يرجع القسم الأوفر منه إليها ، إذ كان المسلمون يكتفون من أهل البلاد المفتوحة بالجزية ، ولا يتعرضون لأحد فى شىء من شعائر دينه أو نظام معاشه ويقيمون فيما بينهم يبرزون لهم كل يوم من الحياة الإسلامية الراقية صوراً مجسمة تعمل عملها فى

(١) رواه أبو داود والترمذى بإسناد صحيح .

نفوسهم ، ويقارنون بينها وبين ما هم عليه فيجدون البون شاسعا والفرق بعيداً ، وكان ينتهى الأمر بإسلام من يسلم بدون ضجة ولا إكراه .

ثانياً : الاطلاع على سير السابقين من الأخيار ، ورؤية ما كان لهم من الآثار الحميدة ، والاستماع إلى ما لهم من حسن الأحدوثة وجميل الذكرى ، لأن حياة هؤلاء الأفاضل تتمثل أمام القارىء وتوحى إليه بتقليدهم والاقتداء بهم ، وقد رأيت بعينى من سرعة التأثر بحكايات الأخيار وشدة وقعه على النفوس الشىء الكثير ، وبخاصة إذا قرنت الحكاية ببيان موطن العظة فيها ، ولذلك كان القصص نوعاً من الأساليب التى سلكها القرآن الكريم فى الإرشاد .

ثالثاً : النظر فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال والحكم الواردة فى مكارم الأخلاق ، فإن لها فى النفوس أثرا لا ينكر من حيث ما اشتملت عليه من ألوان العظات والعبر ، وأساليب من الشر والتقريب من الخير .

رابعاً : ترقية المدارك وتهذيب الوجدان النفسى بقدر المستطاع ، باكتساب العلوم والمعارف ، لأن ذلك يدفع إلى حسن تقدير الأمور والنظر إليها نظراً يتفق وقيمتها الاجتماعية ، ويعينه على أن يقف من نفسه موقفا حازما فى كل أمر متنبها إليها كل التنبه ، سالكا كل طريق يرى فيه تحقيق مقصوده .

هذه هى الوسائل المعينة على تربية الخلق ، وأهمها وأجداها فى المنفعة الأول ، لعدم الاحتياج فيه إلى مجهود كبير فى التكوين بسبب ما ذكرنا من الانسياق الطبعى إلى التقليد والمحاكاة . وإلى هنا انتهى الكلام على القسم الأول بنقطه الثلاث ، وننتقل بعده إلى الكلام على القسم الثانى وهو :

لذلك سببا إلادخول المدنيات الأجنبية المميتة للدين والقومية بين أبنائها وإبرازها فى صور مختلفة براقة وأشكال متنوعة ، وتطلع ضعفاء النفوس إليها وشغفهم بتقليدها ، وسريان ذلك منهم إلى من عداهم .

ولو رجعنا لنصوص الشرع الحكيم لوجدنا أنه قد سلك كل طريق فى سبيل القضاء على عناصر الشر ومحو عوامل الفساد من الأمة ، وشدد كثيرا فى الحض على تغيير المنكر والأمر بالمعروف «وآياته وأحاديثه معروفة مشهورة » كما أمر بتجنب المرتكبين لها والفرار منهم قال تعالى « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » (١) « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » (٢) ولاتركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون» « (٣) ولئن كان الشخص منا يبذل كل الوسائل الممكنة ، ويحتاط أشد الاحتياط تقية من العدوى بمرض جثمانى ، ليس وراءه بالغا ما بلغ إلا حرمان متعة الدنيا ، فأولى بنا وصبغتنا الإسلام أن نحتاط لما يفقدنا رضاء الله تعالى ومتعة الآخرة ونعميها الباقى ، وقد يكون معه فقدان الدنيا أيضا كما هو مشاهد الآن كثيرا .

وأرانى قد أطلت الكلام نوعا فى هذه الناحية ، لكن خطرها العظيم الذى يحس بأثره كل عاقل يجعل هذا قليلا بالنسبة لما تستحقه من التوسع والتفصيل .

الثانى : أن يعلم أن النفس التى لم تنطبع فيها الفضيلة انطباعا كافيا ، دائما تميل إلى التلون والتقلب ، وخلع ربقة التكاليف من عنقها ، وأنها خادعة مموهة تزين

(١) سورة النجم : ٢٩
(٢) سورة الانعام : ٦٨
(٣) سورة هود : ١١٣

الشىء وتوهمه فيه من حيث لا يشعر بقبحه إلا بعد الوقوع كما وصفت بذلك فى الكتاب الكريم « إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى (١) » ولذلك يجب عليه أن يراقبها فى كل ما يستعمل فيه آلات بدنه ، ويحاسبها على ما تريد قبل العمل ، لئلا تجرى فيه على عادة تقدمت له مخالفة لما أدبها به من خصال الكمال .

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل سأله أن يوصيه و بعظه « إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته ، فإن كان رشداً فأمضه وإن كان غيا فانته عنه » وفى حديث آخر « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله (٢) والكيس « العاقل » ودان نفسه « حاسبها » ومن كلام عمر رضى الله عنه « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا « فإن رأى شيئاً مما ذكر أو آنس تقصيراً فى واجب فليبح عليها باللائمة الشديدة ، وليأخذها بما يراه قارعاً لها عن العودة ثانية ولا يعطى هوادة فى شىء ولو قل ، فمعظم النار من مستصغر الشرر ، وصغائر الأمور تجر إلى عظائمها كما أوضحنا عند بيان ضرر الخلطة . وإلى هنا نكتفى فى إيضاح القانون العملى لاكتساب مكارم الأخلاق بما ذكر وننتقل إلى تفصيل ما تيسر من أوامر القرآن ونواهيه الأدبية ، مع الاكتفاء بالايجاز عن البسط والتفصيل الكثير عشيا مع المطلوب من حجم الرسالة وأسأله تعالى التوفيق . ولنبدأ الكلام على فضيلة الصدق التى هى سياج الأمم الحافظ لها من التأخر والانحطاط .

(١) سورة يوسف : ٥٣ .
(٢) رواه ، الترمذى وقال : حديث حسن .

الصدق والكذب

الصدق شيمة الأنبياء والمرسلين ، وحلية الحكماء وخصلة العلماء وزينة الأدباء ، والكذب خصلة اللؤماء ، وصفة الجهلاء ، وديدن الغافلين .

الصدق من أهم العناصر التى تقوم عليها حياة المجتمعات ورقى الأمم ، إذ لابد للأمم من أن يتفاهم أفرادها ويتعاون أبناؤها على قضاء حاجاتهم وبلوغ مآربهم ، والناس إنما يعيشون مجتمعين ، ويتمتعون بالعيش متضامنين ، واللسان ترجمان ، والصدق رسول الأمان ، فإذا تناولوه بالكذب ضاع الحق فيما بينهم ، وغشيت شمس الحقيقة بسحاب باطلهم ، فأخذ كلٌ الحذر من أخيه ، وإذ ذاك ينعدم التعاون ، ويختل نظام الأعمال ، وفى ذاك الهلاك المبين ، لذلك أمر بالصدق ونهى عن الكذب الكتاب الكريم ، وقفى أثره فى ذلك الرسول الأمين ، بما أعلى منار الأول وكشف اللثام عن قبح الثانى . قال تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين(١) » وقال أيضا « فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم(٢) وقال أيضا فى ذم الكذب « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب

(١) سورة التوبة : ١١٩
(٢) سورة محمد صلى الله عليه وسلم ٢١
(٣) سورة النحل : ١٠٥

عند الله كذاباً(١) وفى حديث آخر « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة(٢) ومعنى الجزء الأخير من الحديث ، أن الصادق مطمئن القلب ثابت الجنان ، لا يخاف لوما ولا عتبا ولا يخشى فضيحة ، بخلاف الكاذب فإن الشك يأكل قلبه ، ووساوسه لا تدعه براحة ، مخافة انكشاف كذبه ، وافتضاح أمره ، تغدو به كلمة وتروح به أخرى ، وقد ينسى ما حكاه ويثبت ما نفاه لو غولط فيما قال ، ولذلك يقول على كرم الله وجهه : « الكذاب كالسراب » .

حقيقتهما : عرف الصدق بأنه الإخبار عن الشىء بما يطابق الواقع ، كمن يسأل عن واقعة حدثت فيخبر عنها كما حصلت لا يزيد فيها ولا ينقص وقيل بأنه الإخبار عن الشىء بما يطابق ما يعتقده فيه ، كمن يسأل عن حضور شخص مسافر قدم ولم يعلم به فأجاب بالنفى ، والكذب يقابل ما ذكر .

وليس الإخبار قاصراً على القول بل قد يكون بالفعل كالإشارة باليد وهز الرأس ونحوها .

ومن الكذب المبالغة فى القول مبالغة تجعل السامع يفهم منه أكثر من الحقيقة وكذلك منه حذف المتكلم بعض الحقيقة وذكر بعضها ، إذا أدى ذلك إلى إعطاء الكلام لونا غير لونه الحقيقى .

ومن أنواعه التى وضعت لها أسماء خاصة فى اللغة « النفاق » وهو أن يظهر الإنسان غير ما يبطن ، وهذا الوصف وإن خص فى صدر الإسلام بمن يظهر

(١) رواه الشيخان البخارى ومسلم
(٢) رواه الترمذى وقال : حديث صحيح

الإيمان ويخفى الكفر ، إلا أنه من حيث أصل اشتقاقه يعم كل من يظهر بمظهر ينافى حقيقته ، كمن يظهر الصداقة ويبطن العداء .

ومنها « الملق أو التملق » وهو أن يمدح شخص آخر بما لا يعتقده فيه ، بقصد إدخال السرور عليه أو رجاء منفعة ينتظرها منه .

الوفاء بالوعد والخلف به : ويقابل هذان الصدق والكذب من حيث إنهما يدخلان الأخبار الماضية . والوفاء والخلف يدخلان الأخبار المستقبلة ، والوعد دين واجب أداؤه ، ملزم صاحبه بالوفاء به . ولذلك قيل : وعد الحر دين عليه : الوفاء خلة من أشرف الخلال بها يمتاز الكامل من الناقص والشريف من الوضيع ، بها تقوى الأواصر ، وتعظم الروابط أمر الله به وأثنى على المتحققين به وأنزل فيهم قرآنا يتلى إلى أن تقوم الساعة ، قال تعالى « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود[1] » وقال «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم[2]» وقال « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه[3] الآية . والصدق فى الآية معناه الوفاء .

أما مقابله وهو الخلف . فهو مضيعة المودة ، وأداة التنافر والتفرق ، يسجل على صاحبه الاحتقار والمهانة والذلة ، ويفقده ثقة الناس ويجعله دائما موضع الظنة والشبهة . تلك بعض نتائجه فى الدنيا ، ومن ورائها السخط والخذلان فى العقبى ، قال تعالى (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) [4]وقال صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان[5] » .

(١) سورة المائدة : الآية الاولى
(٢) سورة النحل : ٩١
(٣) سورة الاحزاب : ٢٣
(٤) سورة الصف : ٣
(٤) رواه البخارى ومسلم .

وليس من خلف الوعد التخلف عن الوفاء لأسباب قاهرة عجزت عنها حيلة الشخص طرأت على غير سابق معرفة بها ، إنما الخلف الوعد مع العزم على عدم الوفاء ، أو التخلف لا لمانع ، أو لمانع فى المكنة قهـــره وتذليله ، فذلك موضع الذم .

إذا قدرنا هذا ورجعنا البصر نتخلل أوساطنا وهيئاتنا من أقصاها إلى أقصاها ، ومن أرفعها إلى أدناها ، لا فرق بين المحترفين أو ذوى الجاه العريض أو المتوسطين أمكننا أن نرى أهم عناصر الضعف وأشدها فتكا بالوحدة القومية ، والأخوة الإسلامية ، الذى حمل الكثير منا إن لم يكن الكل على أن يوجهوا نظرهم صوب الغربيين ، ويضعوا ثقتهم فيهم ، ويحملوا وعودهم كلها محمل القوة ويوقنوا بتنفيذها وتحقيقها ، « لا أقول أكثر من إخوانهم المسلمين » بل وقد يبلغ الحال عند بعض ضعفاء الإيمان ، أن يثق بها أكثر من وثوقه بالله فلا حول ولا قوة إلا بالله .

الصـــــبر

حقيقته وأقسامه : الصبر هو مقاومة القوة الغضبية والشهوية فى مقتضياتهما الخارجة عن حد الاعتدال ، وسيأتى بيان مقابله . وهـــو مفتاح السعادة فى الحياتين . وبه تفتح مغاليق الأمور ومن لم يكن له من شربه نصيب قل أن يبلغ مأمولا أو يدرك مطلبا مما يستحق أن يطلب فى نظر العقلاء ، إذ أنه أداة إصلاح لكل ما يحتف بالشخص من عوامل مختلفة ، وما يتعاقب عليه من ألوان الحياة وأشكالها ، من نعمة وبؤس وسراء وضراء .

ذلك لأن ما يعرض للشخص من الأحوال فى حياته ، إما أن يكون موافقا لهواء ورغائبه وميوله الطبيعة ، كالصحة والثراء والجاة وكثرة الأهل والأنصار والأصحاب، وكل هذه عوامل قوية تهيج من النفس رذائل عديدة ، مثل الكبر والزهو والعجب وكثرة الإيذاء والانهماك فى الملاذ والشهوات، وعدم الوقوف عند حد فى مطالب نفسه ، ويكون بروز آثار هذه الرذائل على الجوارح سهلا ميسورا . فما أحوج من كان هذا حاله إلى الصبر ليحبس نفسه على التزام الاعتدال ، وصرف هذه النعم فى مصارفها . وإما أن لا يكون موافقا للهوى والرغبة . وذلك ثلاثة أقسام : الأول مايكون له فيه اختيار كملامة الطاعات والمعاصى، ولولا الصبر على ما تتطلبه من بذل للمال وحرمان للنفس من ملاذها الحيوية، وإخضاعها للقيام بأمر التكليف الشرعى لما استقام فيها أمر الانسان . الثانى مالايكون له فيه اختيار بحال من الأحوال لا صدرا ولا وردا، وذلك كالمصائب والنوازل التى تهاجم الشخص فى ماله أو أهله أو نفسه وما إلى ذلك ، فإذا لم يعتضد الانسان فيها بالصبر، ويأخذ نفسه بالعبر والموعظة ويلزمها التحمل مذكرا لها بما أعد للصابرين من جزيل الأجر وعظيم المثوبة وأنه لافائدة من الحزن وأن المصائب تبدو كبيرة ثم تصغر وما شابه ذلك استفحل حزنه ، وقوى هلعه ، وكانت نتيجته أسوأ النتائج . الثالث مالا اختيار للإنسان فى وجوده ، وله اختيار فى دفعه ، كما إذا أوذى بقول أو عمل أو جنى عليه فى نفسه أو ماله . فإن الصبر عن المقابلة بالمثل مجلبة للود ومانع قوى من استفحال الشر ، إذ لو قابل المعتدى بالمثل ربما كان أقوى منه فينال منه أذى أكثر وإن كان ضعيفا هنه حقد عليه وتربص به الدوائر إلى آخر ماهو مألوف فى مثل هذه الأحوال ، ومن ثم تبين ضرورة الصبر فى الحياة واعتباره أداة لبلوغ الكمال

فى معظم الأحوال وأنه عماد الكثير من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة ، قال تعالى « يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين »(١) وبما ذكرنا يسهل فهم ما يأتى من التقسيم الذى ذكر فى بعض كتب الأخلاق وخلاصته : أن الصبر قسمان . صبر على عدم تناول مشتهى ويسمى « عفة » وصبر على تحمل مكروه ، وتختلف أسماؤه باختلاف مايكون فيه . فإن كان فى عراك وصدام سمى « شجاعة » وضده جبنا وإن كان فى إمساك النفس عن قضاء وطر الغضب سمى « حلما » وضده تذمرا . وإن كان فى ملمة محزنة سمى « سعة صدر » وسمى ضده ضيق الصدر ، والضجر والتبرم ، وهذا الأخير هو المتعارف تسميته بالصبر الوارد فيه الكثير من الآيات والأحاديث وإن كان فى إمساك الكلام فى الضمير « سمى « كتمان السر » وضده الإفشاء ، وإن كان فى الإمساك عن فضول العيش سمى « قناعة » وزهدا ، وضده حرصا وشراهة ، وإن كان فى احتمال الغنى على وجه ممدوح سمى «ضبط النفس » وضده البطر ،وفى هذه الأخلاق كلها نزلت آى الكتاب آمرة بخيرها ناهية عن قبيحها وكذلك امتلأت بها الأحاديث النبوية .

نفى الصبر فى الملمات : وهو الذى يقع فى مقابلة الضجر والتبرم يقول الله تعالى تخفيفا لوطأة المصائب على نفوس المؤمنين » ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » وانما كان هذا تخفيفا ؛ من حيث إن هجوم المصائب مع سبق العلم بتحتم حصولها مما يجعل فى النفس قوة على تحملها ، ولما كان الصبر والتحمل مما يشق على النفوس قال الله تعالى « وبشر

(١) سورة البقرة : ١٥٣ .

الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون » والمعنى قالوا ذلك بألسنتهم مع تسليم قلوبهم « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » (١) وقال « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغـــير حساب » (٢) وفى الحديث الشريف « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه » (٣)

وفى الصبر بمعنى الحلم : لم يقع فى القرآن الكريم الأمر بالحلم بلفظه وإنما ورد الأمر بأمور هى آثار الحلم ونتائجه . قال تعالى مبينا أعلى المراتب التى تقابل بها إساءة المسىء ، بعد أن أباح مقابلته بالمثل « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (٤) وقال فى آية أخرى « وليعفوا وليصفحـــوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » (٥) ولما كان بيان الحكمة والثمرة المترتبة على العفو مما يسهل الأمور على النفوس ؛ ويهون على الراغبين فيه مقاومة الدوافع الطبعية للانتقام قال الله تعالى « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، وذلك مقام العفو « فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (٦) وتلك نتيجته المترقبة ترى بالعين فى كثير من المواطن لمن يتبصر . وفى الحديث الشريف « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب ، (٧)

ومما تنبغى ملاحظته هنا أن الحلم إنما يكون محمودا إذا صادف محله ، بأن

(٢) سورة البقرة : ١٥٥ ــ ١٥٧ (٢) سورة الزمر : ١٠
(٣) حديث صحيح رواه البخارى ومسلم
(٤) سورة الشورى : ٤٠ (٥) سورة النور : ٢٢
(٦) سورة فصلت : ٣٤ (٧) رواه الشيخان

يكون المسىء ممن تؤثر فيهم الصنيعة ، حيبا يقدر قيمة الإحسان والتجاوز عن الإساءة ، أما إن كان بالضد بأن كان لئيما خبيث النفس يزيده الإحسان والصفح عدوانا وبغيا ، فهذا الواجب بالنسبة إليه أن يقابل على الأقل بما يزيل غروره بنفسه ، ويفهمه قيمته ويرد عاديته ، وهذا هو الذى يفهم من الآية السابقة « فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » وكذلك من قوله تعالى فى وصف المؤمنين « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » (١)

وفى العفة : التى هى عدم الإستجابة لدواعى البطن والفرج إلا على الوجه المحمود يقول الله تعالى « يا أيها الناس كلوا ممـــا فى الأرض حلالا طيبا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطـــان » (٢) والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون »(٣) وباقى الآيات التى تنحو فى معناها هذا المنحى مثل الآيات الواردة فى النهى عن الزنا والأمر بغض البصر عن الأجنبيات وما إلى ذلك :

وفى كتمان السر : الآيات الواردة فى الوفاء بالعهد ، لأن من أسر إلى آخر شيئا فكأنما عهد اليه بحفظه وعدم إظهار الغير عليه .

وفى القناعة : وهى الاكتفاء من مطالب الحياة بالسهل الميسور مع عدم التطلع لما فى يد الغير بغية الحصول عليه . ومنشأها الوثوق بما عند الله ، والرضا بما قسم يقول الله تعالى حاثا المؤمنين على التمسك بأهدابها ، وعدم الاستماتة فى طلب

(١) سورة الشورى : ٣٩ (٦) سورة البقرة : ١٦٨
(٣) سورة المؤمنين : ٥ ــ ٧

الرزق ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » (١) وإنما أكد الوعد بالقسم وبما معه من المؤكدات منعا لتسرب الشك إلى نفوس الضعفاء تأثرا بظروف الحياة القاسية ولذلك يقول الله تعالى أيضا « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » (٢) وفيها يقول النبى صلى الله عليه وسلم « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » (٣) والعرض المال ، وفى حديث آخر ، قد أفلح من أسلم ورزق كفافا ، وقنعه الله بما آتاه » (٤) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإنما كان الغنى الحقيقى غنى النفس لأن من تملكه الجشع محال أن يكون براحة ، وهو فى كل وقت مفتقر للمزيد ، كلما تحصل على مرغوب تطلعت نفسه لسواه ، فلا يهنأ بما جمع ، ولا يكف عن طلب المزيد ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم لبعض الصحابة وهو حكيم بن حزام رضى الله عنه حين تكرر منه الطلب والنبى يعطيه « ياحكيم هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع » (٥) وسخاوة النفس عدم التطلع إلى الشىء والطمع فيه ، والإشراف مقابله ، والآيات والأحاديث فيها كثيرة اكتفينا منها بما ذكر .

---

(١) سورة الذاريات : ٢٢ (٢) سورة فاطر : ٥

(٣) رواه الشيخان (٤) رواه مسلم

(٦) رواه الشيخان

وفى ضبط النفس : عند توفر مظاهر الرفاهية وكثرة المال وعظم الجاه يقول الله تعالى تحذيراً من الاغترار بهذه المظاهر الخداعة « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » ثم عقب ذلك ببيان الجزاء لمن لم يأخذ نفسه بهذه العظة وتنامى ربه واسترسل مع نزغات نفسه ، قال تعالى « ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون (١) » أى الذين خسروا آخرتهم بإغضاب ربهم وعصيان أوامره ، وقد يكون معه خسران الدنيا أيضاً وذلك ما يشاهد كثيراً ، ومنشأ ذلك أن كثرة المال نواة الطغيان والطغيان يحمل على الظلم ، والظلم نذير الخراب والدمار ، سنة الله فى خلقه التى لا تتبدل « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا (٢) »

ومما يعين الشخص على تكوين هذا الخلق الفاضل فى نفسه تذكر أن هذه كلها أعراض زائلة إن بقيت اليوم لا تبقى غداً وأنه محاسب على النقير منها والقطمير ، وأن كثرتها والاغترار بها نذير زوالها ، كما بين الله ذلك بلفت النفوس إلى أمر محسوس مشاهد فى كل وقت بقوله «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض » أى فنبت وأورق وأزهر وأثمر وأخذ أدواره كلها حتى أصبح بهجة للناظرين كما بين ذلك فى آية ، أخرى ، ثم ضربته الرياح القاسية فذبل وجف وتساقط . « فأصبح هشيما تذروه الرياح » فما أعظم المثل وأروعه وأجداه فائدة لمن تبصر .

وفى الشجاعة : وهى لا تقتصر على الإقدام والثبات فى القتال ، بل تعم الشجاعة فى المقال ، وثبات الجنان فى المطالبة بالحق والدفاع عنه ففى الأولى

---

(١) سورة المنافقون : ٩ (٢) سورة النمل : ٥٢

يقول الله تعالى « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون[1] » (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار) ثم أنذر من تضعف نفسه ويجبن قلبه فيتراجع بقوله « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير[2] » والتحرف للقتال ، إظهار التقهقر خديعة ، والتحيز الانضمام إلى كردوس[3] من المسلمين للقتال معهم ، وقد مدح الله أقواما بالشجاعة مبينا عظم مثوبتهم عليها بقوله « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم[4] والشجاعة بهذا المعنى سياج الأمم ، وحصنها الحصين الذى يقيها الاضمحلال والسقوط ويحفظ كيانها بين نظائرها من الأمم ، وما من أمة فقدت شجاعتها واستسلمت ونامت على فراش الراحة الوثير إلا ضرب الله على أبنائها الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب منه نتيجة لازمة لتهاونهم وتفريطهم فى أوجب الواجبات ، وما أحوجنا إليها الآن ، فبها وطدت دعائم الأسلام فى باكورة ظهـــوره ، وردت عنه عادية المعتدين ، وبفقدها من أبنائه ضعف ، وبحياتها فى نفوسهم ثانية — إن إراد الله لهم النجاح — يحيا ويقوى .

وأما الشجاعة بالمعنى الثانى (وهى الشجاعة فى المقال) فليست أقل من الأولى فى الفضل والأهمية إن لم تكن أفضل منها وأولى بالطلب ، إذ هى الأساس

(١) سورة الانفال : ٤٥ (٢) سورة الانفال : ١٥ ، ١٦٥
(٣) كردوس : فئة وجماعة (٤) سورة آل عمران : ١٧٣ و ١٧٤

الثابت والدعامة القوية لتشييد صروح المبادئ الإصلاحية قديما وحديثا دينية أو غيرها ، كما أن لها الباع الأطول فى نشر الفضائل ، ومحاربة الرذائل ، ومقاومة ظلم الظالمين . وإرجاعهم عن غيهم فى كثير من الأحايين ، وأمثلة ذلك فى التاريخ « القديم والحديث » معروفة مشهورة ويكفينا منها نظرة فى سيرة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ قال الله له آمرا بها « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين[1] » فصدع بالأمر وقام منفرداً وحيداً يدعو إلى الله بين قوم عرفوا باللجاج والتمسك بباطلهم وتظاهروا عليه صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله ، وقاطعوه وعشيرته واحتجزوهم فى الشعاب ولاقوا من ذلك الأمرين ، وبعد الخروج من الشعب لاقى منهم من الأهوال والمتاعب ما لا يحتمل ، وأخيراً هاجر من موطنه ومسقط رأسه ، وأبعد عن أحب الأمكنة إليه وأعزها عليه ، وكل ذلك لم يفت فى عضده ، ولم يثنه عن عزمه ، وكلنا يعلم ماذا كانت النتيجة بعد ذلك .

وهذا أبو بكر رضى الله عنه خليفته الأول ، وصديقه المبجل ، لولا عزمته الصادقة ووقفته المشرفة فى سبيل الدفاع عن الحق ، أيام الردة ما كان يعلم إلا الله ماذا كان يكون حال الإسلام اليوم . ومما يدل على تفضيل الشجاعة الأدبية على غيرها قول الرسول الأكرم لمن سأله أى الجهاد أفضل قال « كلمة حق عند سلطان جائر[2] » .

وإلى هنا انتهى الكلام على ما يدخل تحت الصبر من الفضائل والخصال الحميدة والله أعلم .

(١) سورة الحجر : ٩٤
(٢) رواه أحمد وغيره وهو حديث مشهور .

العجب والكبر والتواضع

العجب شجرة تنبت فى النفس ، نواتها رأى أخرق ، وجهل مطبق ، ونظر أعشى ، ونفس ملوثة اغترت بعرض زائل : من جمال وجه، وحسن بزة، أو كثرة مال ، أو عظم جاه، أو شرف نسب، أغفلت معايبها، وعميت عن فضائل غيرها، فلم تر الفضل إلا فيها ، ونفخ الشيطان فيها نفخة الغرور، فاهتزت فى حركتها، وتمايلت فى مشيتها .

فإذا ما ثبتت هذه الشجرة فى النفس ، وأخذت حظها من النمو، أثمرت فيها علواً وتيها على من سواها من خلق الله ، يتبعهما تصعير الخدين ، وشموخ الأنف ، وشذوذ الحركات ، وكثرة السيئات ، مع الترفع عن مجالسة النظير ، والأنفة من مخالطته ، والعنف والشدة فى مكالمته ، والتقدم عليه فى مشيته ، وعدم تقبل النصائح منه ، وهذا هو الكبر .

أما إن صفت النفس ، وبصرت ما لها وما عليها ، واستقام النظر ، وعلمت أنها لم تكن شيئا ، وأنها وغيرها مستويان ، اتحد أصلهما ، واتفق مبدؤها ، « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1] إذا تعرفت على هـــذا كله وأيقنت أن كل هذ المميزات لا قيمة لها وليست إلا أعراضا زائلة ، ووقفت عند حدها ، وأنزلت الناس منازلهم ، وعاملت كلا بما يتفق ومكانته الاجتماعية ، فلم تعل إلى درجة المتكبرين ولم تنحدر إلى هاوية المبتذلين ، فذلك هو التواضع .

(١) سورة الحجرات : ١٣

والعجبُ والكبرُ قبيح وصفهما ، مغضب لله ، مفرق للوحدة ، مشتت للشمل ، بسبب ما يترتب عليه من البغضاء والحقد .

والتواضع من الصفات الفاضلة والخصال الحميدة ، يقرب صاحبه إلى قلوب إخوانه ، يمدح بينهم إن غاب ، ويحترم ويبجل إن حضر.

ومن الآيات الواردة فى النهى عن العجب قوله تعالى « ولا تمش فى الأرض مرحاً" وما أصعب التبكيت الآتى على النفوس الحية فى قوله تعالى « إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا »[1] والمرح التبختر . وفى الحديث الشريف «لا ينظر الله لمن جر إزاره بطراً[2] » .

وقال تعالى فى النهى عن الكبر « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور[3] » سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق »[4] « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا »[5] وفى الحديث الشريف « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس »[6] وبطر الحق دفعه ورده على قائله ، وغمط الناس احتقارهم .

(١) سورة الإسراء : ٣٧
(٢) رواه الشيخان .
(٣) سورة لقمان : ١٨
(٤) سورة الاعراف : ١٤٦
(٥) سورة القصص : ٨٣
(٦) رواه مسلم

وقال تعالى فى الحث على التواضع « واخفض جناحك للمؤمنين » (١) ومعلوم أن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أمر لأمته . وفى الحديث الشريف « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد (٢) وفى حديث آخر « وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » (٣) وفى حديث آخر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبى صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت (٤) ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا مر على صبيان سلم عليهم (٥) . ولعل فى هذا الحديث وأمثاله عظة بالغة لمن إذا واتته الدنيا ببعض زخرفها ومنح شيئاً من الجاه والعظمة طاح والناس جميعا ، اللهم إلا من كان أعظم جاها منه ، وعاملهم بما يترفع أن يعامل به المجاوات ، وكأنه من عالم آخر لا تربطه وإياهم أية صلة من جنس أو قرابة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله . ما أحسن التواضع وما أجمل المتواضعين الذين هم فى الحقيقة ملوك غير متوجين ، استولوا على عروش القلوب بسعة الصدر ، ولين الجانب ، وبسط الوجه ، وحلو الحديث ، نظمنا الله فى سلكهم ومنحنا من المثوبة ما منحهم آمين .

الاتحاد والإخاء

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا (٦) » ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين (٧) » .

(١) سورة الحجر : ٨٨
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه مسلم
(٤) رواه البخارى
(٥) رواه الشيخان
(٦) سورة آل عمران : ١٠٣
(٧) سورة الانفال : ٤٦

صدق الله العظيم فى تنزيله الكريم ، إذ لا قوة كالاتحاد ، ولا ضعف كالتنازع واختلاف الرأى ، وما أكثر الشواهد على ذلك .

إن عددت عناصر سيادة الأمم ورقيها وتقدمها على من سواها ، كان الاتحاد فى مقدمتها وعنصرها القوى الفعال ، وإن ذكرت أسباب ضعف أمة كانت السيادة فى التاريخ من مميزاتها ، وسردت عوامل اضمحلالها ، كان شذوذ الرأى واختلاف النزعات أساسها . راجع تاريخ الرومان وتاريخ الفرس ، بل تاريخ الأمة العربية بل تلفت حواليك وأنت ترى البراهين الحسية على صحة ذلك تطالعك بالحق الذى لا مرية فيه آنا بعد أن ، فارتباط القلوب ببعضها وتضافرها على مبدأ تدين به ، وأساس واحد تتكئ عليه ، هو غذاء الأمم الذى عليه قوام حياتها تحيا ما استمسكت به ، وتتلاشى وتضمحل ما فرطت فيه .

علم ذلك العليم بمصالح عباده ، الخبير بما فيه فلاحهم ونجاحهم ، فحثهم على الاتحاد والألفة ، وبين ما يترتب عليه من جليل المنافع ، وعظيم الفوائد ، وساق ذلك فى معرض الامتنان عليهم بالتوفيق إليه ، وما أسبغ عليهم من النعم بسببه فقال : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » (١) .

لم يكتف الله سبحانه وتعالى بالدعوة القولية فحسب ، بل ضم إليها دعوة فعلية وذلك فى كثير من التشريعات الاجتماعية ، كالتى يتخذ المسلمون فيها شكلا واحداً ، ويكونون على طراز واحد . كالحج والجمعة والجماعات والعيدين أو التى يكون

(١) سورة آل عمران : ١٠٢

الغرض من تشريعها ارتباط القلوب برباط المحبة والوئام ، كالزكاة والصدقات المندوبة ، والندب إلى إفشاء السلام وطلاقة الوجه ولين الجانب وما إلى ذلك . ومنها ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، حتى كان أحدهم يرث أخاه لومات دون قرابته وذوى رحمه ، إلى غير ذلك وكما حث الله على الاتحاد وبين نتائجه ، حذر من الاختلاف وبين مضاره فى الآية الثانية ، وقد أشرنا إلى مجمل هذه المضار فى صدر الكلام .

بين الله للمؤمنين فى الآية الثانية أن الاختلاف فى الرأى يستعقب الفشل والخذلان ويفتح للعدو بابا يصل منه إلى الوقيعة بهم ، والنصر عليهم ، ذلك لأن هذا الاختلاف يحل من عزائمهم ، ويضعف من قوتهم ، ويثبط من همتهم ، فإذا ناجزهم عدوهم قابلوه بقلوب خائرة ، وعزائم فاترة ، وهمم كليلة ، وقوة ضئيلة ، ينال منهم العدو ما لا يمكن أن يناله مع الاتحاد . لا سيما وأنهم قد أضافوا إليه من القوة بقدر ما نقص منهم ، وصاروا عوناً له ولكن على أنفسهم ، فما أحسن ما أرشد الله إليه عباده .

ولا يكون الاتحاد والاجتماع مرضياً عند الله تعالى إلا إذا كان أساسه الذى يبنى عليه الدفاع عن الحق والرضوخ لقوانين السماء ، وإلا كان أسرع الأشياء للزوال ، وأقربها للاضمحلال ، وذلك المستفاد من قول الله «واعتصموا بحبل الله»

ومن التشريعات التى شرعها الله تقوية لرابطة المسلمين وتفاديا من تفشى البغضاء فيما بينهم :

النهى عن السخرية واللمز والتنابز

وسوء الظن والتجسس والغيبة

وذلك فى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم[1] » ستة أمور أدب الله بها المؤمنين فى هاتين الآيتين ، هى من أقوى دواعى الألفة وارتباط القلوب وانتشار المحبة فيما بينهم : الأول أن لا يسخر أحد بأحد ويستخف به . الثانى . أن لا يعيب أحد على أحد بشىء يكرهه ، وهذا معنى اللمز ، سواء كان بالقول ، مثل أنت كذا أو كذا من الأوصاف القبيحة ، أو بالفعل كأن يقلده فى مشيته المنتقصة مثلا أو فى حركته ، أو بالاشارة كأن يحدث من بجواره عن وصف قبيح ثم يشير بحاجبه أو برأسه ، إشارة يقصد منها إفهامه تنقيصه الثالث ، أن لا يدعو أحد أخاه المؤمن بلقب يكرهه ، ولو كان بوصف هو فيه ، كقوله يا أعرج أو يا أعمش أو نحو ذلك . ولشدة وقع ذلك على النفوس وعظيم تأثرها به ، سمى الله فاعله فاسقاً وظالما بقوله « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » الرابع أن لا يسىء ظنه بأحد من إخوانه المؤمنين ، إذا كان ذلك مجرد تهمة لا دليل لها من الواقع المحسوس كأن يرى شخصاً يصلى مثلا فيتهمه بالرياء

---

[1] سورة الحجرات : ١١ ، ١٢ .

أو يراه مارا فى جهة من الجهات التى هى من مواخير الفجور ، ولم يكن معروفا عنه ذلك ، فيتهمه لمجرد هذه الرؤية ، فهذا وأمثاله الظن المحرم الذى قال الله فيه « إن بعض الظن إثم » أما من يتعاطى الريب[1] ويجاهر بالفسوق ، أومن قامت أدلة واولم تكن يقينية على اتهامه فلا إثم فى اتهامه بما يستلزم ما شوهد عليه عادة . الخامس . أن يبحث ويفتش على عورات المسلمين ومعايبهم ، ويستكشف ما ستروه عن الناس فإن فى ذلك فضيحة لهم وتعرضا لما لا يعنى ، ومحبة لشيوع الفاحشة بين المسلمين ، السادس . أن لا يذكر أخاه بما يكرهه فى غيبته ولو بما هو فيه ، سواء كان ذلك الشىء المذكور يستلزم نقصا فى بدنه أو نسبه أو خلقه أو فى فعله أو فى قوله أو فى دينه ، وبالجملة كل ما يتعلق به .

بعد أن نهى الله المؤمنين عن هذه القبائح التى هى من أقوى العوامل المفرقة للقلوب ، حضهم على تجنب سخطه وغضبه وعذابه ، بالمحافظة على الابتعاد عنها ، والمبادرة إلى التوبة والإنابة إليه فيما اقترفه منها وذلك بقوله « واتقوا الله إن الله تواب رحيم » .

وما أشد التبكيت فى قوله تعالى « عسى أن يكونوا خيراً منهم » وأبدع الخطاب وأبلغه فى قوله « ولا تلمزوا أنفسكم » ذلك لأن من شأن العاقل أن يزن ما يبرز منه بميزان الحكمة والتبصر ، لا أن يكون كالطفل يلهو ويلعب لا يدرى أخطأ أم أصاب ، وهؤلاء كان الأجدر بهم أن لا يقصروا النظر على هذه المظاهر المزرية فى نظر العين ، إذ يحتمل أن تكون هذه الأسمال البالية أو الخلقة المشوهة ، قد اشتملت على روح ملائكية ، وقلب نقى طاهر مفصل

(١) الريب : بكسر الراء المشددة وفتح الياء — جمع ريبة وهى التهمة .

بملكوت الله عزوجل ، ولكنهم لما عميت بصائرهم تطاولت ألسنتهم . وفى قوله تعالى « أنفسكم » بدل إخوانكم مثلا أومايؤدى هذا المعنى إشارة إلى مدى ما ينبغى أن تكون عليه رابطة المؤمنين الروحية من القوة بحيث يكون تألم أحدهم تألما للآخر ، وما يؤذى أحدهم يؤذى الآخر ، وهكذا وفق الله المؤمنين الصادقين للتحقق بهذا المعنى بمنه وكرمه . وقد أبرز الله المغتاب فى الآية فى صورة بشعة تتقزز من مرآها النفوس الإنسانية ، وتقشعر من فظاعتها الجلود ، إذ شبه من يجرؤ على تخطى هذا الحد ويقدم على انتهاش عرض أخيه ، بمن يستحضر جثته بعد خروج روحه ومفارقته الدنيا ويتناولها قضما وبلعا وذلك فى قوله « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » وفى هذا التشبيه دلالة على مبلغ ما وصلت إليه الغيبة من الشناعة والقبح فى نظر الله سبحانه وتعالى. ومما يدل على ذلك أيضاً قول النبى ﷺ لعائشة رضى الله عنها حين وصفت ضرتها صفية بالقصر « لقد قلت كلمة لومزجت بماء البحر لمزجته[1] أى خالطته مخالطه يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها . ومن جوامع الأحاديث فى بيان حق المؤمن على أخيه ، قول النبى صلى الله عليه وسلم « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم ، المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يظلمه ولا يحقره التقوى ها هنا ، ويشير إلى صدره ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ،

(١) رواه أبوداود والترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح .

« إن الله لاينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم وأعمالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم[1] » .

الأدب مع الوالدين

والدا الشخص هما أصل حياته وسبب بروزه إلى حيز الوجود بعد أن كان فى طيات العدم كفلاه صغيرا ، وحدبا عليه كبيراً ، وضحيا فى سبيل رعايته وتربيته بالكثير من راحتهما وهنائهما ، فلا جرم أن عظم الله حقهما وقرن واجبه بواجبهما ، وحتم على الابن برهما ، والقيام نحوهما بكل ما من شأنه إدخال السرور عليهما وتوفير الراحة وهناءة العيش لهما ، كما حرم عليه إساءتهما وتكدير خاطرهما ولو بأدنى شىء وأقله ، أداء لبعض حقهما ، واعترافاً بعظيم إحسانهما وجليل فعلهما ، لكى يجنيا ثمار غرامهما ونتاج كدهما .

فمن حقوقهما التى حث الله عليها فى كتابه الكريم تفصيلا لما أجمله بقوله « وبالوالدين أحساناً » إمتثال أمرهما فيما لهما فيه رغبة ولو كان شاقاً على النفس ثقيلا عليها ، إلا إذا كان فيما يغضب الله تعالى من كفر وعصيان ، فمخالفتهما واجبة فى هذه الحالة ولاتسمى عقوقا .

ومنها القيام بنفقتهما من مأكل ومشرب وملبس ، واحترامهما وملاطفتهما وشكرهما بالتحدث أمامهما بما لهما عليه من الفضل والمنة لما قاما به نحوه من الإحسان وهو صغير ، وإظهار أنه لايفى بحقهما مهما أسدى إليهما من المعروف

(١) رواه مسلم .

لأن فى ذلك مزيد ترضية لهما وانشراح لصدورهما ، وكذلك تقديمهما على غيرهما فى النفقة من ذوى قرابة ورحم . يقوم بكل ذلك نحوهما ولو كانا كافرين مدى حياتهما حتى يتوفاهما الله أو يهديهما . أفاد الله ذلك كله بقوله « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ، أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلىّ[1] » .

ومنها تحمل ما يبدو من أحوالهما وأقوالهما مما يكرهه ولايستحسنه وعدم مقابلتهما بما يكون من ورائه تضررهما وتكدير خاطرهما من قول أو فعل أو إشارة ولو بأدنى شىء وأقله ، لأن الله لم يرخص بذلك كله ولا بكلمة « أف » التى هى أقل أمارات التضجر والتبرم ، وبخاصة إذا كانا كبيرين ، فإنهما فى هذه الحالة يكونان كالأطفال ، يتأثران بأدنى شىء ، ويحسان فى أنفسهما بأنهما أصبحا عالة عليه ، فكل كلمة توجه منه إليهما يشتم منها رائحة التضجر تقع من نفسيهما موقعا عظيما ، ولذا خص الله سبحانه حالة الكبر بالتوصية فى الآية الآتية . والواجب المطلوب مقابلتهما به فى هذه الحالة القول اللين الجميل السهل ، بأحسن ما يمكن التعبير به من لطف القول وعذوبة المنطق ، مع التواضع وخفض الجناح والتذلل وعظيم التوقير والاحترام ، وليذكر أنهما سلكا معه نفس هذا المسلك ولاطفاه وتحملا منه فوق ذلك من الأذى أيام كان صغيراً لايعقل من أمره شيئا ، وأن يدعو لهما ويسأل الله رحمته ورفده لهما[2] ، ولو كفاهما مؤنة العيش بماله فإن

(١) سورة لقمان : ١٤ ، ١٥

(٢) الرفد ، العطاء

رحمة الله أدوم وعطاءه أوسع ، قال تعالى بيانا لما ذكر « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا »(١) وليعلم أن بر الوالدين وإن كان واجبا وجوبا مؤكدا فهو للأم أوكد وحقها أعظم من حق الأب لعظيم ما قاسته من المتاعب والشدائد التى لاتخفى على أحد ، ولولا رعايتها ما تم نمو الابن ولا سلم من الآفات . جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى قال «أمك» قال ثم من قال «أمك» قال ثم من قال «أمك» قال ثم من قال «أبوك»(٣) ولا يتم حق الآباء بالإحسان إليهم فى الحياة فقط ، بل من تمامه الدعاء لهما بعد الموت والاستغفار ، وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما . وعن أبى أسيد مالك بن ربيعة رضى الله عنه قال بينا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال يارسول الله : هل بقى على شىء من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما فقال : نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما »(٢)

هذا هدى القرآن فى بيان ما للآباء من حقوق على الأبناء ، ولكن مصيبة المسلمين وهى الجهل بتعليمات الدين ، أو إن شئت فقل تفريط الآباء فى تنشئة

(١) سورة الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ (٢) رواه الشيخان

(٣) رواه أبو داود . والصلاة عليهما هى الدعاء لهما بالمغفرة والرحمة .

تتفق ومبادىء الدين الحكيمة قد حولا هذه الآداب إلى أضدادها ، وأصبحت لا ترى فى الغالب إلا قحة وبذاءة وعصيانا ومخالفة وإهانة للأبوين قد تصل فى بعض الأحايين إلى اللكم والضرب وما إلى ذلك وإن صادفت احتراما من ابن لأبيه لا يكون ذلك غالبا إلا لحاجة كنفقة أو ميراث يخاف الحرمان منهما . أو ما شابه ذلك . وهكذا جزاء التفريط وكما يقال فى المثل « زارع الحنظل لا يجنى وردا » والله ولى التوفيق .

والآن أكتفى بما ذكرت من الأخلاق والآداب وإن كان قليلا لئلا تطول الرسالة عن الحد المطلوب فيها ، وأرجو الرجوع إليها بعدئذ لاستكمالها إن شاء الله تعالى ، وأختمها بمحاضرة فى تقوى الله تعالى التى هى جماع ما جاء به القرآن الكريم من القوانين الكافلة لسعادة الدارين .

تقوى الله تعالى

الله تعالى وحقه على عباده ، حقيقة التقوى ، ثمراتها ، عواملها ، مراتبها ، مابه كمال الأعمال وقبولها ، خاتمة .

الله تعالى وحقه على عباده

« الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار »(١)

(١) سورة ابراهيم . ٣٢ ـ ٣٤

فى العالم قوة خفية تديره وتحركه هى فى وجودها وخفائها وعدم اكتناه حقيقتها كالروح الإنسانية موجودة وكلنا نؤمن بوجودها ولكن لاندرك حقيقتها ، تلك القوة هى أصل وجود هذا العالم وسر بقائه ، وروح مانشاهده ، من نظام دقيق ، وقوانين لا تختلف ، وظواهر تتتابع بانتظام ، وفصول تتعاقب وليل ونهار ، وبحار وأنهار . ونبات وأزهار ، أمور يحارفيها عقل الحكيم المفكر ويعلى العقل عندها إجلالا وإعظاما إذا تدبر ، هذه القوة العالية التى هى منتهى الكمال وما ثم وراء كاملها كمال ، هى التى أسماها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بالاسم المقدس « الله رب العالمين ، إله عظيم رحيم ، منعم متفضل ، من بحر جوده نستمد حياتنا ومابه قوام وجودنا ، فهو خالقنا ورازقنا ، وماثم شخص إلاوهوفى كل لحظة يسبح فى محيط نعمه الذى لا ساحل له ولا انتهاء ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

لهذا وجب علينا شكره وحبه وإجلاله والقيام له بجميع ضروب الخضوع والتعظيم ، لهذا وجب علينا أن نتقبل جميع أوامره بقلوب راضية مطمئنة ، نتجمل بأوامره ، ونتزين بها ، ونتأى بجانبنا عن مخالطة نواهيه ، ونرفضها بكل ماأوتينا من قوة ، قياما ببعض ما يجب علينا له تعالى ، إذ محال أن نفيه بحقوقه كلها « وما قدروا الله حق قدره » « سبحانك ما عبدناك حق عبادتك يامعبود » إذا اتصلت النفس بالله اتصالا حقيقيا وامتلأت عقيدة بجلاله وكماله وأخذت عنه قانون الأخلاق صدرت الأعمال عنها ممزوجة بقوة تجعلها أقوى أثرا وأكثر نفعا ، ولذا ترى معظم من اندفعوا لنصرة الحق من المسلمين وتشددوا فى التمسك به ، أوضحوا بأنفسهم فى سبيله كانوا ممتلئين عقيدة بالله ووجوب طاعته ألهبتهم بنار الحماسة

والحمية ، رغبة فى رضاه ، أو شوقاً إلى لقاه . ذلك طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه لولا إيمان ملك عليه مشاعره وإخلاص للدين وقر فى صدره ما انحنى على النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد يتلقى عنه بظهره السهام والسيوف والرماح حتى عدوا فيه نحوا من ثمانين جرحا .

ومن ثم كان أول شىء تعنى به الأديان السماوية وتقدمه على **كل** شىء هو لفت النفوس إلى بارئها ، وإصلاح العلاقة بينها وبينه ، وتعريفها ما يجب له من صفات الكمال والجلال والعظمة «وما أرسلنامن قبلك من رسول الله إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (١) » .

حقيقة التقوى

التقوى اسم جامع لجميع أنواع البر وكافل لصاحبه كل خير ومبعد عنه **كل** شر ؛ وبينها العلماء بأنها « امتثال أوامره جل شأنه ظاهرا وباطنا ، واجتناب نواهيه كذلك ، ومراقبته تعالى فى **كل** عمل من الأعمال ، بل وفى سائر الحركات والسكنات » مثال الأوامر الظاهرية النطق بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت الحرام للمستطيع وجميع الفروع المتعلقة بها وما إلى ذلك ، ومثال الأوامر الباطنية الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر ، والرضا بالقضاء والقدر والتسليم لله تعالى والصبر على البلوى ، واعتقاد أن مصدر النعم كلها هو الله ، وحسن الخلق والتواضع والخوف من الله والرجاء فيه ، والإخلاص فى العمل ، وحب الله ورسوله وأوليائه ، وبغض

(١) سورة الأنبياء : ٢٥

أعدائه ومحبة العبد لأخيه ما يحب لنفسه إلى غير ذلك .

ومثال النواهى الظاهرية فعل الزنا ، وشرب الخمر ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وقتل النفس ، وأذية الناس ، والغيبة ، والنميمة ، والكذب ، والسب والطعن فى الأعراض ، وأكل الربا ، وتطفيف الكيل والوزن ، وانتهاب مال اليتيم ، والنظر لمن لا تحل له من النساء ، والغش ، والغدر ، والخيانة ، وما إلى ذلك . ومثال النواهى الباطنية الكبر والعجب ، والرياء وحب الحمدة ، والسمعة والتفاخر ، والبخل ، والحقد ، والحسد ، والمكر وضد جميع ما تقدم ذكره فى الأوامر .

ويختلف نوع المراقبة بحسب ما تكون فيه ، فإن كان العمل طاعة كانت المراقبة باستحضار ذاته العلية ، وتمثيل عظمته فى القلب ، وانبعاث الخشية والخضوع من جميع الجوارح ، واستخلاص القلب من جميع الشواغل الدنيوية ، وملاحظة أن الله تعالى مطلع على كل خالجة وساكنة ، وهذا أعلى أنواع المراقبة الذى أسماه النبى صلى الله عليه وسلم الإحسان وقال فيه « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » وإن كان العمل معصية راقب عليه رقيبا مهيمنا قريبا يعلم ما توسوس به نفسه ويخفيه صدره ، مطلعا عليه فى جميع أحواله وأعماله ، سواء ما خفى منها وما ظهر ، « ولا تعلمون تعلمون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء » (١) فعند ذلك يخشع قلبه وتسكين جوارحه ويملأ خوف الله تعالى قلبه فيجتنب القبيح بعد العزم عليه ويحجم عن المنكر بعد الوصول اليه . ومما ذكرنا فى بيان حقيقة التقوى نستنتج أمرين هامين :

(١) سورة يونس : ٦١

الأول : وجوب السعى لتعرف حكم الله فى كل شىء ليتأتى القيام بالمطلوب على وجهه ، لأن الاعتذار بالجهل لا يقبل عند الله تعالى بعد إذ بين الطريق ووضحه توضيحاً كافيا وألزم المؤمنين بتعرف ذلك بقوله « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »(١) وإذا كان الشخص منا لا يني ولا يتعب ، ويسعى جهد الطاقة فى تعلم ما يفى بحاجاته الضرورية ويقيه العوز والفاقة ، ويتخير أحسن المهن وأجداها فأولى أن لا يفرط فى السعى لضمان راحته وسداد خلته « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » (٢) « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » (٣) .

الثانى : أن التقوى ليست كما يفهمه الكثير من العامة الآن ويعتقده سبيلا موصلا للنجاة وإن كان البعض قد جره ذلك إلى الجهل بحقيقة الدين إذ البعض يتمسك بالمحافظة على الصلاة والصوم مثلا ويرى ذلك كافيا ويضن بالزكاة ويبخل بها ، والبعض يتمسك بالأعمال الظاهرية ويترك لسانه أو لقلبه الحبل على الغارب يغتاب هذا أو يحسد ذاك ويحقد عليه أو يمكر به أو يسىء الظن بالمؤمنين جميعاً ولا يرى على خير إلا هو ، وما إلى ذلك من أمور لا تتفى بحق بعضها العبادة مهما كثرت ، وقد علمت أن ذلك ليس المطلوب بل المطلوب ما استهته صدر الكلام .

(١) سورة الانبياء : ٧
(٢) سورة الشعراء : ٨٨ ، ٨٩
(٣) سورة الأعمى : ٣٤ — ٣٧

ثمرات التقوى

لقد حفلت آى الكتاب الكريم والسنة الصحيحة بالتنويه بشأنها ، وتعداد ثمراتها ، التى جمعت خيرى الدارين ، وسعادة الحياتين ، ولاغرو فمن وتته العناية والتوفيق ووفى الله حقه من جوارحه وقلبه بقدر طاقته كان جديرا برضاه خليقاً بمحبته ونعماه ، وحقق الله له ما وعد به المتقين وزاده من بحر فيضه وفضله ما لم يكن ليخطر له على بال .

فمنها تفريج الكرب والشدائد وتيسير الأرزاق « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب » (١) .

ومنها تيسير الصعاب من مهمات الدنيا والتوفيق لإصلاح الأعمال لكى تحسن نتائجها المقصودة منها ومن ذلك قوله تعالى « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » (٢) « يأيها الذين آمنو اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم » (٣) ومنها التقدم والرقى فى الحياة الدنيا ، وحلول الأمان والطمأنينة محل الخوف ، وذلك قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » (٤) .

ومنها إشراق النور الإلهى على القلب لتنقدح فيه المعانى الصائبة والآراء

---

(١) سورة الطلاق : ٢ ، ٣
(٢) سورة الطلاق : ٤
(٣) الاحزاب : ٧٠ ، ٧١
(٤) سورة النور : ٥٥

السديدة ، فتتم الأعمال فى غاية الإحكام ، « يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » (١) .

ومنها غفران ما فرط من التقصير فى حق الله تعالى بمحو الذنوب والآثام « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » (٢) .

ومنها النجاة من النار والخلاص من عذابها الأليم وذلك قوله تعالى « وإن منكم إلا واردها — أى النار — كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » (٣) .

ومنها محبة الله تعالى للعبد ، والعناية به فى كل أموره ، وإفراغ العلوم والمعارف عليه ، قال تعالى « إن الله يحب المتقين » (٤) « إن الله مع الذين اتقوا » (٥) « واتقوا الله ويعلمكم الله » (٦) .

ومنها التكريم والتشريف من الله يوم القيامة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٧) وفى الحديث الشريف « شرف الدنيا الغنى وشرف الآخرة

---

(١) سورة الأنفال : ٢٩
(٢) سورة الطلاق : ٥
(٣) سورة مريم : ٧١ ، ٧٢
(٤) سورة التوبة : ٧
(٥) سورة النحل : ١٣٨
(٦) سورة البقرة : ٢٨٢
(٧) سورة الحجرات : ١٣

التقوى ، فيالها من كرامة غمطت بجانبها جميع المظاهر التى يعتبرها الناس الآن عنوان الشرف من مال وجاه ونسب وعلم وأشباه ذلك .

ومنها دخول الجنة ، والفوز فيها بالدرجات العالية والمقامات الرفيعة بجوار الله سبحانه وتعالى أبد الآبدين ، وذلك قوله تعالى « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا »(١) « إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر »(٢) نظمنا الله فى سلك المتقين بمنه وكرمه آمين .

عوامل التقوى ومراتبها

من الناس من يكون مقصوده الأول من التزام القانون السماوى ماوراءه من الثمرات والفوائد الدنيوية من تسهيل سبل العيش وتوفر ضروب النعمة والرفاهية والتقدم المادى والأدبى بين نظرائه فيفى بوعده ولايكذب فى قوله ويجانب الغش فى معاملته لما وراءه من تحسين موارد الثروة إن كان تاجراً ، أو يصلى ويصوم ليبسط له فى رزقه إن كان ممن قدر عليه رزقه ، أو يخرج الفريضة من ماله أو ينفق على المحتاجين ليخلف عليه أضعاف ذلك ، وهكذا مما أمثلته كثيرة فى الخارج ومثل هذا الصنف تقواه على متن الريح مزعزعة لاثبات لها ولاقيمة لها فى نظر الله تعالى ، كما يستفاد ذلك من قول الله تعالى « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين »(٣) .

---

(١) سورة مريم : ٦٣ (٢) سورة القمر ٥٤ ، ٥٥

(٣) سورة الحج : ١١

ومنهم من يدفعه إلى التقوى وأداء واجب الدين إما خوف مما توعد الله به العاصين من النار وما فيها من صنوف العقاب وألوان العذاب وإما رغبة فيما وعد به المتقون فى الجنة من حور وقصور ، وحدائق وأعناب ، وما كل ومشرب وملبس ومركب ، وما إلى ذلك .

ومنهم من تعلو همته عن كل ذلك ويكون الحامل له على التقوى محبة فى الله ملأت نفسه ، انبعثت عن إحساس بعظيم آلائه ، وجزيل فيضه وإحسانه الذى لم يسبق بسابقة من العبد فهو أهل لأن يعبد ويمتثل أمره ، شكراً له على هذه النعم المتتالية والإحسان المتوالى ولم يكن ثم نعيم أو عقاب . وهذه المرتبة أكمل صور التقوى وأرقاها ، ومرجعها لشىء واحد وهو عبادة الإله لأنه يجب أن يعبد .

فأنواع التقوى ثلاثة : الأول العمل رجاء تحصيل المنافع الدنيوية . الثانى العمل رغبة أو رهبة . الثالث العمل لا متثال أمر الله لا لشىء سواه . وأعلى مراتبها المرتبة الأخيرة .

وقد يستنكر البعض مثل هذا الكلام ، ولكنه لو كلف نفسه التبصر قليلا لرأى أمثلة ذلك فى الحس كثيرة مألوفة يحكم بها هو فى كثير من الأحايين ، فمثلا ليس من يمتدح شخصا من العظماء لا يحمله على امتداحه إلا جدارته واستحقاقه وتعشقه فى جميل صفاته كمن يتمشدق بفيه ويلوك الثناء بلسانه رغبة فى عطائه أو طمعا فى جاهه .

وكذلك تجد فرقا بين من يقوم بما يناط به من أعمال الفرد أو الجماعة لا يدفعه على القيام به إلا أداء الواجب للواجب ولما فيه من حسن ، أو لإرضاء

ضميره وتخليص ذمته ومن يؤدى ذلك مخافة القوانين واللوائح ، وشتان بين الرجلين وما مثال الآخير إلا كالقط يلزم الأدب والاستكانة مادامت العين يقظة إليه فإذا ما آنس غفلة من حوله اختطف ما تصل إليه يده ولاذ بالفرار .

بل نحن الآن نوازن بين الشخصيات البارزة التى بين ظهرانينا أو التى نسمع أخبارها على هذا القانون فنفضل من يجاهد فى سبيل المصلحة العامة غير آبه ولا حافل بالماديات أو المظاهر والجاه وننتقص من يتعلق منها بأدنى سبب .

ما به قبول الأعمال وكمالها

إنما تكون الأعمال التى هى مظاهر التقوى مقبولة عند الله تعالى ، محققة لما وعد به من المثوبة ، وعظيم الأجر ، إذا كانت نقية من شوائب الرياء الذى يكدر صفوها ، ويفسد جوهرها ، متحققة بالإخلاص الذى هو روحها .

ولبيان الإخلاص والرياء نقول .

يدور الكلام فى بيان حقيقتهما حول ما يسمى فى عرف الأخلاقيين بالباعث على العمل ويسميه الإمام الغزالى « النوايا والمقصود » ولفظ باعث يطلق على معنيين ، يطلق بمعنى الدافع للشخص على الإقدام على العمل كالشفقة التى تدفع إلى الرحمة بالمحتاج والإحسان إليه ، ويطلق بمعنى الغاية المقصودة من العمل كالإحسان بقصد الثواب أو بقصد ثناء الناس والباعث بالمعنى الأخير هو الذى نتناوله الآن.

فعمل الخير الذى يتلبس به الشخص المؤمن قد يكون المقصود منه مجرد الرغبة فى رضاء الله وامتثال أمره أو تحصيل ثوابه الذى وعد به ، وقد لا يلحظ فيه شيء مما ذكر ، بل يكون الغرض مجرد الثناء من الناس بالتظاهر بفعل

الخير أو تحصيل منفعة دنيوية كمن يتصدق ليقال محسن أو يخطب أو يحاضر فى الدين ليقال فصيح أو خطيب أو عنده حمية على الدين وكمن يحج لبيت الله لمجرد السياحة والتفرج تنزيها للنفس أو للتجارة أو ما شابه ذلك .

وقد يجمع فى القصد بين الأمرين السابقين بأن يضم إلى قصد القربة شيء مما ذكر فالأول الإخلاص وهو « تنقية العمل من قصد غير الله تعالى » والثانى الرياء المحض وهو ضده والثالث نوع من الرياء ، ومعناه ظاهر . والإخلاص روح الأعمال وسر قبولها حث الله عليه وجعله من تمام الأعمال بقوله: « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين(١) » كما جعله فى آية أخرى عنوانا على صدق التوجه إليه ، وذلك فى قوله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا(٢) » .

والرياء بنوعيه شرمستطير ، ترد به الأعمال الصالحة على صاحبها ، ويأتى يوم القيامة صفر اليدين ، ولا يجد من نتاج عمله إلا حسرة تملأ قلبه ، وتنغص عليه عيشه . قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عزوجل « يقول الله عزوجل: من عمل عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله ، وأنا منه برىء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك » وقال ﷺ أيضاً « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ، قال الرياء ، يقول الله عزوجل إذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء(٣) » .

---

(١) سورة البينة : ٥

(٢) سورة الكهف : ١١٠

(٣) رواه أحمد

خاتمة

تبين مما سبق أن أعلى مراتب التقوى ما كان ناشئا عن امتلاء النفس بمحبة الله وشعورها بجماله وكماله . فهل من سبيل لتحصيل هذه المرتبة وإحياء هذا الشعور فى النفس ؟ نعم .

خلق الله النفوس مجبولة على النفور مما يؤلمها ، والبعد عنه ، والقرب والميل لما تجد فيه متعة ولذة ، وسرورها الناشىء عن تلذذها يحملها على أن تنظر لمصدر النعمة نظرة تقدير ، واعتراف بالجميل ، يعقبها ميل نفس قد يكون فى مبدئه ضعيفاً ولكنه يقوى ويرسخ بالتكرار ، ولهذا يقول الشاعر العربى .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان إحسان

فالطريق الوحيد فى التكمل بهذه العاطفة الشريفة ، والتمتع بما وراءها من الخيرات ، هو لفت النفس إلى ما أفاض الله عليها من نعم لاتقف عند حد ، ولا تنتهى عند غاية ، منها الجليل والدقيق ، والصغير والكبير ، من النطفة مبدؤها فى الدنيا وعند الله منتهاها ، وليس يعلم إلا الله ما منها يكون فى الآخرة ، فعل ذلك فضلا منه «وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها» وليذكر نفسه بأنه قد كان لا شىء ، وأصبح بعد ذلك شيئا مذكورا ، مستكملا جميع الآلات ، مجهزاً بكل المعدات ، يكافح بها فى الحياة الدنيا : عقل مفكر ، وقلب مدبر ، وكلام معبر ، وسمع وبصر ، وحس منتشر ، سبحانه « يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى » خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وأمطرنا الماء وأطعمنا

النبات ، وأمدنا بالأنفاس وجملنا بالباس وخلق لنا ما فى الأرض جميعاً ، فما أعظم منته وما أكثر نعمه .

فلعل النفس إذا تنبهت إلى هذه النعم وأمثالها ، وتكرر لفتها إليها تصحو من نومتها ، وتفيق من سكرتها ، فتعترف بمعبودها حق الاعتراف ، وتحن لرضاه فتتزين بتقواه . اللهم جملنا جميعا بالتقوى ، ووفقنا للإخلاص فى العمل ، وألهم الأمة الإسلامية الرجوع إلى دينها ونشر مبادئه ، والتمسك بها على أكمل وجوهها .

والحمد لله بدأ وختما ، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تمـــت هذه الرسالة ليلة الثلاثاء غرة المحرم سنة ١٣٥٠ هجرية ؟

الفهرس

صفحة	الموضوع
٥	تقديم
٨	وصف القرآن الكريم
٩	محتويات القرآن
١١	أثر القرآن فى العرب خلقيا واجتماعيا
١٦	معنى الخلق والأدب
٢٠	النفس الانسانية وماجبلت عليه
٢٣	التربية الخلقية والطريق العملى لاكتسابها
٢٤	كيف تعرف أمراض النفس
٢٥	علاج الخلق
٢٩	تربية الخلق والمسائل المعينة عليه
٣٢	قانون الصحة الخلقية
٣٦	الصدق والكذب
٣٨	الوفاء بالوعد والخلف به
٣٩	الصبر
٤١	سعة الصدر أوالصبرفى الملمات
٤٢	الحلم
٤٣	كتمان السر
٤٣	القناعة
٤٥	ضبط النفس
٤٥	الشجاعة
٤٨	العجب والكبروالتواضع
٥٠	الاتحاد والإخاء
٥٣	السخرية واللمز والتنابز وسوء الظن والتجسس والغيبة
٥٦	الأدب مع الوالدين
٥٩	تقوى الله — الله تعالى وحقه على عباده
٦١	حقيقة التقوى
٦٤	ثمرات التقوى
٦٦	عوامل التقوى ومراتبها
٦٨	مابه كمال الأعمال وقبولها
٧٠	الخاتمة

حقوق الطبع محفوظة